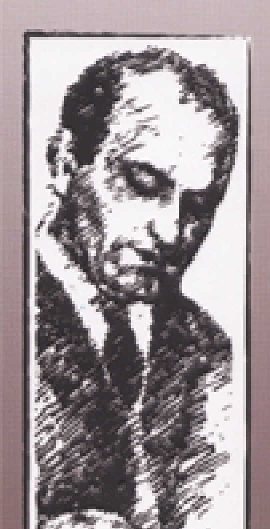
ALI SHARIATI

الآثار الكاملة (٥)



علي شريعتي



الشهادة

دار الأمير

الشهادة


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الآثار الكاملة ـ ٢٦ ـ

الشهادة

الشهيد الدكتور علي شريعتي

تقديم

الدكتور إبراهيم دسوقي شتا

دار الأمير

إسم الكتاب : الشهـادة

إسم المؤلـف : د. علي شريعتي

تقديـم : د. إبراهيم دسوقي شتا

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

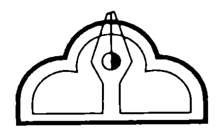
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-06-7

الطبعة الأولـى : ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

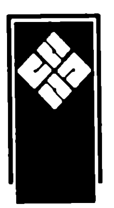
التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت - لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا - بيروت - لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . .** ، **أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي



«... من لا يكون شاهداً على عصره، شاهداً على صراع الحق والباطل في مجتمعه، فلا يهمّ ان يكون في اي موقع ومكان. ان يكون واقعاً في محراب العبادة، ام جالساً على مائدة الخمر...».

«... إن لكل ثورة رسالتين: رسالة الدم، ورسالة الكلمة...».

«... الذين استشهدوا قاموا بعمل حسيني وعلى الباقين أن يقوموا بدور زينبي وإلا فإنهم يزيديون...».

«... إن طريق الله والشعب، طريق واحد وان الله من دون الناس رهبانية وصوفية وليس إسلاماً حقيقياً...».

الدكتور علي شريعتي



مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

خمسةٌ وعشرون عاماً مرّت على استشهاد علي شريعتي . . .

ربع قرن وقبله ما يساويه، . . نصف قرن، . . ولم ينته الصراع بعد . . لا أريد أن أُعرّف بالرجل؛ ولكن هناك أمور يجب التركيز عليها . .

حُلمان . .

حلمٌ طالما راود الشاه وقد كفاه «السافاك»[1] تحقيقه عام ١٩٧٧م، فبعد وصوله لندن بشهر واحد تحقق حلمٌ كبيرٌ من أحلامه الشيطانية . . «قُتل المُعلّم»[2].

الحلم الثاني للطاغية لم يتحقق: **«سيظل هؤلاء الجلادون**

(١) السافاك: جهاز الإستخبارات الإيراني زمن الشاه، وكان من أخطر وأبشع الأجهزة القمعية على مستوى العالم.

(٢) هذا اللقب رافق الدكتور شريعتي من بدايات الثورة أواسط الستينات حيث كان يُدرّس في جامعة مشهد، ثم في جامعة طهران، وبعد تأسيس حسينية إرشاد عام ١٩٦٩م، تأصل هذا اللقب للدكتور شريعتي وظل مرافقاً له حتى استشهاده؛ وإلى يومنا هذا ما زال يُعبّر عنه بين مريديه باسم «المُعلّم».

يتحسرون على سماع كلمة آه مني»[١] . . . مات الطاغية وازداد المُعلّم في موته حياة وكل يوم يمر؛ تضاعف ذكره وفكره الأيام **«والمبدعون مناياهم تضاعفهم فكلما قلَّ من أعمارهم كثروا»**[٢] .

بهذا الإصرار ـ البصيرة ـ كان يخاطب شريعتي الملايين من جيل الشباب ـ «جيل الثورة» ـ وبهذه الروح الشفافة كان يطلق آراءه: الوعي ـ العودة إلى الذات ـ النقد التاريخي ـ رفض الموروث القائم على الخرافات والتستطيح للإسلام والعقول ـ الكفاح من اجل فلاح الإنسان ومقاومة «اغواء» الرأسمالية من جانب و«اغراء» الماركسية من جانب آخر، والانتقال بجيل الشباب إلى النبع الصافي للإسلام الأصيل، بهذا كله كان يخاطب شريعتي طلابه وجمهوره واستطاع إلى جانب الشهيد مطهري والشهيد بهشتي وغيرهم، أن يؤصل هذا الفكر النيّر في عقول ونفوس الشباب، وكيف لا، وهم جيل الثورة وعصبها. . جيل الغد الذي طالما عمل شريعتي أن يكون ناهضاً ومشرقاً. .

ولكن ما ميّز شريعتي عن سواه، هو الإلتفاف الهائل من جيل الشباب حول محاضراته وندواته؛ حيث كان يعتبره الجميع بشكل أو بآخر «مُعلّم الثورة»، ومنهم الكثير، اليوم بالذات، من يشغل مناصب ومراكز مرموقة في إيران ممن يعتبرون شريعتي أستاذهم ولو بمرحلة من مراحل حياتهم، وحتى الذين حاربوه من أصحاب

(١) هذه الكلمة أطلقها شريعتي من سجنه بعد إغلاق حسينية إرشاد.

(٢) من قصيدة للسيد محمد حسن الأمين في رثاء الشاعر محمد مهدي الجواهري، مجلة القصب ـ العدد ١١ ـ السنة الثالثة ـ ص ٢١..

العقول المتحجّرة عن قصد أو غير قصد، فإن من الصعوبة بمكان أن ينكروا فضله على هذا الجيل في تلك المرحلة، حتى حين كان جهاز «السافاك» وأعوانه يلجأون إلى تزوير بعض كتبه وتحريفها (بهدف إثارة رجال الدين ضده)، كانوا يطبعون من مليون إلى ثلاثة ملايين نسخة من كل كتاب لتوزيعه مجاناً، وهذا يدل على مدى انتشار آرائه وأفكاره آنذاك.

وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن بعض أعمال شريعتي تُرجمت في مراحل الثورة المختلفة إلى أكثر من عشر لغات حيّة، وعلى هذا، وانطلاقاً مما تقدم، أخذت **دار الأمير** على عاتقها تعريب تراث هذا المُفكّر المسؤول ضمن مشروع «الآثار الكاملة» والتي تصل إلى أكثر من ستين عملاً فكرياً، لما تراه من حاجة ماسة تلبيها هذه الأعمال، والتي بعضها بحاجة إلى تدقيق واعادة نظر، فهي ليست كتاباً منزلاً، وهذا ما كان شريعتي يقوله عن نفسه وكتبه. ولكنهم بدل أن يحاوروه خوّنوه، حتى وصل بهم الأمر إلى اتهامه بالانحراف، فدائماً (ومن شديد أسف)، التهم جاهزة، خاصة عند اصطدام المصالح، ولو كانت على حساب الدين والعلم، وهنا لا بدَّ لي؛ ومن باب الأمانة العلمية، أن أشير إلى أن بعض هذه الأعمال هي أصلاً محاضرات مسجلة على «كاسيت» وقد قام الأخوة المترجمون بتفريغها وتنسيقها موضوعياً، ولا يخفى على متتبع أن التأليف شيء والمحاضرة والخطابة شيء آخر، فيرجى أخذ الأمور على محاملها الحسنة، فشريعتي لم تسعفه الحياة لإعادة النظر في الكثير من أعماله، فقد استشهد ولم يبلغ الستة والأربعين من العمر، وهناك سنوات قضاها

قابعاً في غياهب السجون، وهو نفسه كان قد صرّح أمام الكثير من العلماء والمفكرين، ومنهم ما زال على قيد الحياة أمثال **المؤرخ السيد حسن الأمين**[١] أطال الله بعمره، صرّح أمامه أن هناك بعض الأمور التي جاءت في بعض كتبه ومحاضراته خاصة التاريخية والعقائدية بحاجة إلى إعادة نظر وتدقيق، وانه سيقوم بذلك، ولكن الموت كان أسرع، وعندما كان الشهيد في أواخر أيامه وقد احسّ بدنو أجله خاصة في الرسالة الأخيرة التي أرسلها لنجله والموجود جزء منها في هذا الكتاب، كان قد طلب من بعض أقرانه ومنهم الشهيد مطهري؛ ومنهم من هو على قيد الحياة اليوم، أن يقوموا بتصويب هذه الأمور، خاصة المجموعة في كتب وهي في الأساس كانت مجموعة محاضرات، فالبعض حصل والبعض حتى الآن لم يحصل. لهذا نستميح القارىء عذراً إذا وقع بعض ما تقدم، فنحن في مشروع طويل وشاق، وإننا في **دار الأمير** على أتم الإستعداد لنشر أي رد أو نقد، وفي موقعه من النشر، في طبعات أخرى أو حتى مستقلة، شرط أن يكون مبنياً على أساس علمي سليم، نسأل المولى العزيز التوفيق، والقارىء الكريم العذر عن أي تقصير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد حسين بزي

بيروت في ١٠/١٠/٢٠٠١م

---

(١) السيد حسن محسن الأمين مؤرخ جليل، وهو نجل الإمام السيد محسن الأمين العاملي «صاحب الأعيان»، للسيد حسن عشرات المؤلفات منها دائرة المعارف الإسلامية الشيعية وموسوعة مستدركات أعيان الشيعة.

علي شريعتي: حياة وفكر

بقلم الدكتور إبراهيم دسوقي شتا
استاذ اللغات الشرقية
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

لا شك في أن ثورة إيران الإسلامية أهم أحداث القرن الرابع عشر الهجري قاطبة إن لم تكن أهم الأحداث في تاريخنا المعاصر، بل إن الانتصار المحيّر لهذه الثورة سوف يكون مجال بحث وأخذ ورد ونقاش مستمر بين الباحثين في العالم، ذلك أنه ـ وربما لأول مرة في التاريخ ـ تقف أمة مستضعفة خالية الأيدي مفتوحة الصدور إلا من سلاح واحد تملكه، وهو الإيمان في وجه قوى طاغوتية، وتقف وتصمد ولا تبخل ببذل الروح والدم حتى تجندل في النهاية كل القوى الطاغوتية، وتُلقي بها في مزبلة التاريخ، وهذا في حد ذاته يثبت أن سلاح الإيمان غير قابل للهزيمة، ويبرهن تماماً إلى أي حد تستطيع البلاد الإسلامية أن تستفيد من هذا السلاح القديم الجديد، الخفي والمتروك، لكنه كالنار تحت الرماد يومض ويحيا في قلب الأمة.

هذا الأصل الإسلامي للثورة، أي الأفكار الإسلامية التي فجرت الثورة وفي الوقت نفسه فجّرتها الثورة فتحولت من خلالها إلى قوى حية وفعالة، هو بلا جدال أهم أصول الثورة، لأنه مهما قيل عن اتجاهات الثورة، ومهما كان الهجوم الذي تتعرض له من عدو حاقد أو منافق مشفق أو مدّعي أخوّة لكي يشوه من وجه الثورة، فإن الثورة الفكرية التي واكبت الثورة الفعلية سوف تبقى وتنتشر، ذلك أن تأثير مفكري الثورة **«علي شريعتي»** **«وآية الله الطالقاني»** **«وآية الله مطهري»** **«وغيرهم»** في نشر الفكر الثوري، وتحويل المبادىء إلى تيارات حية في قلب الأمة لا يقل تأثيراً إن لم يزد عن دور أولئك الذين بذلوا الأرواح.. في الميادين وإن كان علي شريعتي أبعد أثرا. لقد كان الحاضر الغائب في ساحة الصدام، ذلك أنه كان قد استشهد قبل انفجار الثورة بعدة شهور.

ولد علي بن محمد تقي شريعتي في «مزينان» وهي قرية من قرى سنروار في منطقة خراسان تقع على حافة الصحراء الكبرى المعروفة باسم «دشت كوير» سنة ١٣١٢ هـ. ش [ديسمبر سنة ١٩٣٣م]، كان أبوه محمد تقي شريعتي من كبار المفكرين والمجاهدين الإسلاميين، أسس في مدينة مشهد بالاشتراك مع عدد من رجال الدين المناضلين «مركز الحقائق الإسلامية» (كانون حقايق إسلامي)، وقام بنشاط واسع في تنقية أصول التشيع مما علق بها عبر القرون من (الدخيل) والخُرافة.. كما قام بتوعية الجماهير بالدور الحقيقي للدين في المجتمع، وفي مثل هذه البيئة، وفي كنف مثل هذا الأب شبَّ (علي شريعتي)، مهتماً منذ طفولته

بقضايا الدين والأمراض المنتشرة في المجتمع، مدركاً أن مبادىء الدين الموجودة في الكتب التي تُدرّس شيء، وتلك الشعائر التي يمارسها الناس شيء آخر، أمّا التشيع الحقيقي فهو شيء ثالث مختلف تماماً، وبالرغم من اكتشافه هذه الحقيقة في سن صغيرة، لم يقم كما قام غيره بالفرار من الدين والنفور منه ونبذه ظهريا.. كان يرى أن الدين في حاجة إلى ثورة تقوم بتحويله من عامل ضعف وخمول إلى عامل قوة وطاقة وحياة.

إلى جوار ذلك لم يعكف شريعتي على البحث المُجرّد فحسب، بل انضم إلى جناح الشباب في الجبهة الوطنية وهو لم يزل بعد صبياً، وبعد سقوط **مصدق** انضم إلى حركة المقاومة التي أسسها **آية الله زنجاني وآية الله طالقاني ومهدي بازركان**، وعندما ضربت بعنف سجن شريعتي ستة أشهر ولم يكن قد تخرج بعد من كلية الآداب (سنة ١٩٥٨) وعندما تخرّج من الجامعة من كلية الآداب بدرجة الإمتياز في السنة التالية برغم كل هذه الظروف، أُرسل في بعثة إلى فرنسا (سنة ١٩٥٩).

وتُعد سنوات فرنسا من أكثر السنوات خصباً في حياة شريعتي القصيرة العريضة، كان شاباً ذا ضمير طاهر ذكيا يقظ القلب، مسلماً حقيقياً يعرف تماماً قيمة كونه مسلماً حقيقياً، عرف تراثه جيداً، وحمل معه زاداً غنياً وفياضاً وقيماً من الثقافة الإسلامية، وبالتالي لم يتعرض شريعتي لتلك الصدمة التي يتعرض لها المبعوثون من العالم الفقير المستضعف عندما يتعاملون مع العالم الغني المستكبر لأول

مرة، فتكون نتيجتها أن «يتغربوا» و «يفرغوا من الداخل» و«يتشبهوا» دون مقاومة. لم يحس بنفسه قط «كمسلم» ضئيلاً أو صغيراً أو متخلفاً أمام الجبروت الغربي، لم يفقد شخصيته الإسلامية وذاته الحقيقية، بل على العكس كانت فرصته سانحة لكي يعرف شريعتي عن قرب حقيقة الحضارة الأوروبية، والشخصية الغربية وكبرياءها وغرورها، ووسائل الاستعمار الجديد، وسياسة السلب والنهب والتسلل وطحن الإنسان. وعلى أساس من هذا الفهم وضع شريعتي أهم نظرية في فكرة الحي الثوري، وهي نظرية العودة إلى الذات، ومرة أخرى وبعد ما يقرب من مائة سنة من **السيد جمال الدين الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده**، يثبت علي بن محمد شريعتي أن المسلم الصادق المؤمن، العارف بأصول الفكر الإسلامي، والمتفهم للإسلام جيداً، لا يمكن أن يحوّل وجهه عن الإسلام أو أن يرضى عنه بديلاً. وإن الحضارة الغربية مهما كانت «عالمية» ومسيطرة ومتسلطة لا يمكن أن تصلح للمسلم الحقيقي، بل إن المسلم الحقيقي يستطيع أن يدرك نقاط الضعف في الحضارة الغربية وأن يستغلها لصالح الإسلام، على الأقل عندما يقوم بمقارنة هذا الذي يُقدّم على أنه «الحل الأخير» بما جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان. وهكذا فعل شريعتي عندما اختار علم الاجتماع الديني ميداناً لتخصصه، وكأنه كان يستشرف المستقبل عندما رأى أن تلك الشعوب الإسلامية المقهورة، لن تتحرك إلا بالدين، ولن تنجو إلا بالإسلام. فنال الدكتوراه في علم الاجتماع الديني، كما نال دكتوراه ثانية في تاريخ الإسلام. وفي فرنسا واصل

نشاطه السياسي، فأسس فرع أوروبا **لحركة تحرير إيران** التي أنشأها بازركان وطالقاني سنة (١٩٦١)م، وشارك مشاركة فعالة في دعم الثورة الجزائرية، وتعرف على مناضلي العالم الثالث من أمثال **إيما سيزار وفرانز فانون** الذي قام بنقل جزء من كتاب «معذبو الأرض» إلى اللغة الفارسية، كما سجن في فرنسا لمدة ثلاثة أيام، إذ كان ضمن المقبوض عليهم خلال المظاهرات التي اندلعت في فرنسا احتجاجاً على مصرع **لومومبا**.

وفي منتصف الستينات عاد شريعتي إلى إيران، وعلى الحدود ألقي القبض عليه، ثم أطلق سراحه بعد فترة، عُيِّن مدرساً بجامعة مشهد. حسناً: كان شريعتي يستطيع آنذاك أن يكون أستاذاً مثل بقية الأساتذة، مفكراً مزيفاً ومفرغاً من الداخل، وناقداً وعالماً بالغرب، ودليلاً متطوعاً للتنوير والتغريب، ذا حيثية وأموال ووجه متألق في وسائل الإعلام، متحدثاً في كل محفل، وخطيباً لكل مجلس، لكن متى يمكن للمسؤول الملتزم ذي الهدف المحدد الواضح أن يكون أهلاً لهذه الأمور؟! عاد شريعتي وبدلاً من أن يقوم بترجمة «الوجود والعدم» لسارتر، ويشتهر كفيلسوف «وجودي» ترجم «سلمان الفارسي» لماسينيون. وبدلاً من أن يكتب عن أقطاب الغرب كتب عن «أبي ذر الغفاري». وبدلاً من أن يتحدث عن الأصول، التي لم تكن موجودة سوى في خيال الإعلام (الشاهنشاهي)، وفلاسفة الماركسية الشاهنشاهية المفسّرين لعهد «أعتاب الحضارة العظمى»، أخذ يلقي الدروس والمحاضرات العامة ذات الهدف التنويري الديني. وكم من الأحجار ألقاها في

ذلك المستنقع الآسن الذي كان غائباً في نوم الغفلة، وفجأة خلال هذا الحلم (الشاهنشاهي) عن «حضارة الشاه العظمى» التي تقوم بإحياء عظام ملوك جاهلية إيران، يُعلن الشاب أن إيران لا تملك سوى حضارة الإسلام. لا علماء ولا شعراء، ولا فلاسفة، ولا أدباء فيها إلا أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام، ويصبح ذلك الشاب الذي يبلغ نيفاً وثلاثين سنة حجر عثرة، ليس بالنسبة للبلاط فحسب، بل بالنسبة لرجال الدين المنتسبين إلى البلاط «أولئك العمال الهواة للظلمة»، والذين كانوا يجاهدون في تلقين الناس «إسلاماً مزيفاً ضعيفاً متوائماً مع الطواغيت مؤدياً إلى النوم». . وكان صوت شريعتي مخلصاً، عالماً، بعيد الغور، بسيطاً في نفس الوقت، بحيث كان عدد المشاركين في ندواته ومحاضراته لا يقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مشترك، ولم يكن هناك بد سوى طرد الشاب «الخطر» من الجامعة ونقله إلى إحدى القرى النائية معلماً في المدارس الابتدائية. لكن «لا بأس»، إنه لم يفقد صفته كمُعلّم على كل حال، فلم يهن ولم يستسلم، والناس يقطعون الفيافي لكي يستمعوا إليه. فتستسلم السلطة وتنقله مدرساً في جامعة طهران، على الأقل لكي يكون تحت سمعها وبصرها قريباً من أعوانها وجواسيسها.

في سنة (١٩٦٩) كانت «حسينية الإرشاد» قد افتتحت لكي تكون مركز إشعاع إسلامي، ويركز فيها شريعتي كل نشاطه، ملقياً محاضرات منتظمة عن الإسلام وتاريخ التشيع، مصححاً من خلالها المفاهيم السائدة، ملقياً بثقل الإسلام عاملاً لشحذ الهمم

والتعبئة الفكرية والسياسية في أوساط الشباب، ومؤسساً لخمس لجان للإشراف على النشاطات المتعددة: لجنة لتاريخ الإسلام ولجنة لتفسير القرآن، ولجنة للأدب والفن، ولجنة للغة العربية لتصحيح منابع التراث الشيعي، ولجنة للغة الإنجليزية لحمل رسالة الإسلام العالمية ونشرها. والتف حول حسينية الإرشاد جيل كامل من الشباب، نعم، لقد حول المجتمع كله إلى جامعة يلقي فيها دروسه ومحاضراته. ومرة أخرى أثبت شريعتي أنه هو نفس الأستاذ اليقظ الصامد. وملأ ذلك الرجل الفريد رسالته، وبأسلوب واضح ومفهوم استطاع أن يجعل من قضايا الإسلام قضايا يومية، وفي دروس معرفة الإسلام (إسلام مشناسي)، جلا الإسلام في ضوء بقية الأديان والمذاهب الفلسفية المعاصرة، وهيأ أرضية مناسبة تماماً للثورة الفكرية، وطرح «التشيع العلوي» في مقابل «التشيع الصفوي التقليدي»، وصار وحده جيشاً يقاتل «التغرّب» و«التشبه» و«عبادة الشاه» و«المفكرين المزيفين»، ويقف بالمرصاد للعملاء في لباس رجال الدين ووعاظ السلاطين و«استغلال الدين ضد الدين».

وقامت عليه الدنيا وقعدت، فهو حيناً يتهم بأنه وهابي، وحيناً يتهم بأنه زنديق، وهو يقف لكل حملة مفنداً دعاويها، فاضحاً ما وراء أستارها. ولا تجد السلطة بداً من إغلاق حسينية الإرشاد (سنة ١٩٧٣)، وتقوم بالقبض على شريعتي ووالده، ويبقى في السجن ثمانية عشر شهراً متعرضاً لصنوف العذاب، ويتدخل المسؤولون الجزائريون فيفرج عنه سنة (١٩٧٥) لكنه يوضع تحت المراقبة ويمنع من أي نشاط. وتسمح له السلطة ـ لأمر في نفسها ـ بالرحيل

عن إيران في مايو سنة ١٩٧٧، ويسافر إلى لندن. وبعد شهر من إقامته في لندن يعثر عليه ميتاً، ميتة غامضة تعلن عنها السلطة أنها نوبة قلبية، والكل يعلم أنها من تلك النوبات المصطنعة التي دبّرتها السلطة عشرات المرات لأعدائها. ولا تسمح لجثمانه بأن يدفن في إيران، فينقل إلى دمشق ويدفن في الحرم الزينبي، شهيداً شاباً كشهداء الثورة الحسينية التي طالما اعتبرها نموذجاً يحتذى. ويترك لنا حوالى مائة وعشرين عملاً ما بين فلسفي وأدبي وتحريضي، لكنها كلها تتخذ من جذوة الإسلام القبس الذي يضيء الطريق أمام جماهير الشباب، وتؤدي إلى انخراط جيل كامل من الشباب في صفوف الحركة الإسلامية في إيران، ويكون في موته أكثر حياة وأكثر حضوراً.

ابراهيم دسوقي شتا

قالوا في شريعتي

الإمام السيّد علي الخامنئي[1]

أودّ هُنا أن أنقل لكم خاطرة جرت عام ١٣٤٧ هـ ش (١٩٦٩م) أي في السنة الأخيرة من عمر جلال آل أحمد، حيث جاء المرحوم آل أحمد إلى مشهد، فجمعتنا وإيّاه جلسة مشتركة كان من حاضريها بالإضافة إلى آل أحمد المرحوم شريعتي وعدد من الأصدقاء. حين وصل الحديث إلى علماء الدين، وكان يعبّر عنهم يومذاك بالحوزة العلمية، التفت المرحوم آل أحمد إلى شريعتي متسائلاً لماذا تنتقد الحوزة العلمية بكثرة ولا تنتقد مثقفينا. . . هلمّ وانتقد مثقفينا أيضاً!

«أجاب المرحوم الدكتور شريعتي بجواب يمكن أن نتلمّس من خلاله حقيقة موقفه في التمييز بين «الروحانيين» كموقع وحالة،

(١) الولي الفقيه وقائدالجمهورية الإسلامية في إيران، وكان في أيام الثورة على معرفة وصلة بالدكتور شريعتي.

و«الروحانيين: علماء الدين» كأشخاص، قال: **ان سبب تأكيدي في نقد الحوزة العلمية، يعود إلى أننا ننتظر الكثير منها، بينما لا ننتظر شيئاً من نخب مثقفة ولدت في أحضان الثقافة الغربية. الحوزة العلمية قاعدة أصيلة نأمل منها أن تقدم الكثير، وحين تتخلّف عن العطاء في مقام العمل فإننا نمارس النقد**».

استطيع القول أن شريعتي يمثل مرحلة، ولكن بهذا المعنى: لقد استطاع أن يطرح أفكاراً في المجتمع من خلال لغة واضحة وأن يبينها لذلك الجيل من خلال هيمنة خاصة على الثقافة السائدة بين أفراد ذلك الجيل.

وهذا لا يعني مطلقاً أن شريعتي لا يملك ابداعاً معيناً، وإنما كان له الكثير من الإبداع في المسائل الجديدة وهذا هو المعنى ـ الذي أعنيه ـ بأن شريعتي يمثل مرحلة مضت.

المرحلة التالية ـ لشريعتي ـ هي أن نأتي للقضايا التي طرحها انطلاقاً من فهمه للثقافة الإسلامية، ونعيد تأسيسها ومطابقتها في إطار أصول الرؤية الفلسفية (الكونية) للإسلام.

إن عملية إعادة البناء هذه ستتمخض في نظري عن مرحلة جديدة تكون مفيدة لجيلنا الحاضر وبتعبير آخر، إن ما نحتاج إليه هو أن نقرأ شريعتي إلى جوار مطهري.

فما ينتج من الجمع بين جمال (البيان) لشريعتي ومتانة الفكر الإسلامي وإحكامه لمطهري، هو بالضبط المرحلة الجديدة التي يحتاج إليها جيلنا الحالي.

إن الإطار التأسيسي الذي يجعل الدكتور شريعتي في إطار الروّاد الأوائل، يتمثل في قدرته البيانية الفائقة في إعادة طرح الإسلام بلغة حديثة تتناسب مع ثقافة الجيل يومذاك. وإذا كان الكثيرون ولجوا قبله هذا المجال، فإنَّ النجاح الذي حققه شريعتي لم يحققه سواه[١].

(١) مجلة الوحدة، العدد ١٦٢/ رجب ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م ص ٣٦ ـ ٣٧.

الشهيد الدكتور محمد الحسيني البهشتي[1]

لقد أوجد الدكتور ـ علي شريعتي ـ طوال السنوات الحساسة ـ من عمر الثورة الإسلامية ـ جواً حماسياً مؤثراً، وكان له دور بنّاء في جذب الطاقات الشابة المتعلمة نحو الإسلام الأصيل، واجتذب قلوباً كثيرة نحو الثورة الإسلامية. وعلىٰ الثورة والمجتمع أن يقدّرا له ذلك الدور المؤثر.

كان الدكتور ـ علي شريعتي ـ **رجلاً عاملاً مجدّاً، لقد كان فناناً بحق، وهذا الجانب الفني يظهر في قلمه وكتاباته. كان يرغب حقاً أن توجد حركة وثورة إسلامية أصيلة في بلدنا بعيدة عن التأثر بثقافة الشرق والغرب، تقوم على أساس التعاليم الإسلامية، وكان يعشق تلك الفكرة.**

---

(١) **إن السيد بهشتي كان أمة في رجل، عاش مظلوماً ومات مظلوماً.** من كلمة الإمام الخميني(قدس) في نعي الشهيد بهشتي.

كان يعير الجيل الشاب أهمية كبرىٰ، وكان يعرف معاناتهم وهمومهم، وقادر على بيانها. كان يشكل رصيداً قيماً، وكان باحث، وقد ارتكب بعض الأخطاء في استنتاجاته الإسلامية والاجتماعية، لا بد من ملاحظتها في كتاباته[١].

(١) من أجوبة الشهيد الدكتور بهشتي على أسئلة الطلبة الجامعيين حول الدكتور شريعتي، راجع كتاب: الدكتور شريعتي باحث على طريق الوصول، تأليف الشهيد بهشتي، دار البقعة، الطبعة الثانية ١٩٩٩.

آية الله السيّد محمود الطالقاني[(١)]

. . . ، جاء رجل إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو مضطرب، فخاطب الإمام: يا بن رسول الله هلكت. فسأله الإمام: وماذا حدث؟ فأجاب: إني شككت بوجود الله. فهدأ الإمام من روعه، وبدلاً من تكفيره أو طرده قال له: الله أكبر هذا أول اليقين، فالله الذي عرفته وعبدته من قبل كان صنيعة خيالك وأوهامك، كان صنماً صنعته أنت، ليكون آلة بيدك تستخدمها لصالحك. الآن شككت بذلك وحطمت ذلك الصنم، وقد بقي عليك أن تواصل طريق اليقين لتصل إلى الإيمان الصحيح. . .

هناك الكثيرون ممن يعبدون إلهاً كهذا، إنهم يحتاجونه كوسيلة للعيش والشفاء من الأمراض، وكبديل عن العمل والسعي والطب والعلم و. . . ، إن ذلك الإله هو تماماً كالصنم الذي تصنعه الأوهام والخيالات المريضة لبشر ضعفاء.

---

(١) أحد الرموز الكبار للثورة الإسلامية في إيران.

لا شك أيضاً بأن كثيرين يبدأون بالشك، ويبقون أسراه دون أن يستطيعوا الخلاص منه والعبور إلى اليقين. أما الشك الذي نتحدث عنه، فهو الذي يعتبر أول اليقين، ويعتبر حافزاً على البحث والدراسة الجادة، . . .

. . . إن المرحوم شريعتي، تميز بروح مستقصية شكاكة منذ بداية شبابه وأوائل عهده بالدراسة والتحصيل العلمي. كان يشك بكل شيء، حتى بدينه؛ فقد كان يشك بالدين السائد بين الناس، أي بذلك الإسلام الممسوخ، ذلك الإسلام الذي حُوّل إلى دكان للارتزاق، ووسيلة للاحتراف وتربية «المريدين». كان لا بد لشاب واع مثل شريعتي أن يبدأ بالشك، لكنه لم يبق أسير الشك.

بدأ بالدراسة، بحث في الأصول، قرأ في المناهل الأولى، فكر وتمعن في التفكير، هاجر في أرض الله الواسعة، والتقى بالناس في العالم، واحتك بمختلف المدارس والمناهج، فتوسعت آفاق فكره، حتى بلور مفهومه عن إسلام ثوري حيّ. . وعاد إلى وطنه حاملاً عبء الرسالة. إن هذا التحول والتطور إنما عاشه معظم شبابنا، ولكن ليس كل واحد منهم بشريعتي، ليستطيع أن يَعْبُر مخاض الشك والتردد فيصِل اليقين.

في ظل أكثر العهود إرهاباً وسواداً، حيث كان مجرد ذكر الإسلام الثوري، يعد أكبر جرم في نظر الطغاة، بدأ شريعتي مهمته، فكسب قلوب الشباب وبدأ بتغيير مفاهيمهم. فقد كان الشباب إما أسرى مناهج ومدارس فكرية أخرى، أو مبهورين وغير

واثقين من أنفسهم. إن علي شريعتي رسخ ثقة عميقة بين الشباب، ثقة بأصالتهم وفكرهم وبقدرتهم على الوصول لليقين؛ ورغم كل هذه الجهود الجبارة، فقد كان يردد طوال عمره وإلى أن وافته المنية: **لست منزهاً عن الأخطاء؛ وغالباً عندما كنا معاً، كان يقول لي: قوّمني إذا أخطأت، ناقشني لأرى كيف يمكن أن أصحح أخطائي. إن هذه كانت من صفاته البارزة، إذ أن على الإنسان أن يتوقع دائماً بأنه قد يخطىء وأن عليه تصحيح خطئه.**

* * *

كان دائماً يستمع للآخرين، ويفكر في القول ليتبع أحسنه. كان يأخذ ما هو الأحسن من كل مدرسة وفكر: مدرسة اليسار، مدرسة اليمين، مدرسة الإسلام، وقد قال لي مرة: **إنني آخذ جملة أو فكرة من كتاب عادي جداً، كتاب ديني شائع مثلاً، فأبرز وأطوّر ما لم تقع عليه أعين القراء.**

لقد كان إنساناً نبيلاً خلوقاً متواضعاً، وكم ظلمه أولئك الخصوم الذين اتهموه بأنه عنيد لا يقبل النقاش.

كان يتحدث ويكتب ثم يقول للآخرين: **ناقشوني وقوّموني فلربما كنت أنا على خطأ**... ومن خلال النقاش الصبور الدؤوب، استطاع أن يبلور ذلك النهج الإسلامي الذي هو كفيل بتغيير أمة بكاملها، واستطاع أن يسترجع شبابنا من «قصور الشباب» التي بناها الشاه، ليلهو فيها الشباب وينسوا رسالتهم الاجتماعية ويصبحوا مشوهين وممسوخين. لقد استرجعهم شريعتي بعدما جعل من

حسينية الإرشاد مناراً ومركزاً للاستقطاب.

* * *

كل يوم.. كنا نشهد معركة ضد شريعتي في أحد أحياء العاصمة. لقد شنّوا عليه حملات ظالمة مستمرة. كنا نقول لأولئك المتحاملين: ماذا حدث؟ إذهبوا واسمعوا آراءه وناقشوه، وقدموا له الرد الذي تريدون. لكن الأمر كان يجري على نحو آخر، إذ كان البعض يقتطع جملة أو فقرة من كتاب له، ويستخدمها لتشويه فكره والتحريض ضده في الاجتماعات العامة ومختلف الأوساط. تلك الاجتماعات التي كلنا نعلم بأن السافاك كان وراء تنظيمها ـ سراً أو علانية ـ.

لكن تلك المحاولات لم تنل من شريعتي، وقد حققت أفكاره تغييرات كبرى في عقول الواعين من الناس، وخصوصاً في عقول الجيل الجديد. إن الانجازات التي حققها شريعتي في قلب مفاهيم بأكملها بين الناس، هو الذي مهد لثورتنا العظيمة وأرسى أسسها.

* * *

إن آخر مرة التقيته فيها، كان عندما خرج من السجن، وقد سهرنا الليل معاً إلى ما بعد منتصفه، وقد تلمست فيه صفاء روح واجادة تعبير لن أنساهما طوال حياتي؛ وعندما كنت أتحدث، كان يستمع إلي بكل جوارحه، ثم يعلق على الموضوع فيغنيه بشرح أوضح وتعبير أفضل. كان آخر موضوع تحدثنا حوله، هو

سورة القدر، وتفسيرنا لمسألة ليلة القدر. أنا قلت جملة واحدة، فتلقفها مني، وشرع بتحليل بهرني وجعلني أنسى الوقت، فلم انتبه إلا وقد مرت ساعة من بعد منتصف الليل. . . بعدها ودعته وافترقنا. . .

سار هو نحو قدره، نحو «ليلة قدره»، وسرت أنا نحو قدر آخر، نحو السجن، حيث اقتربت من الموت، لكنني لم أحظ بالشهادة، ولربما كانت مشيئة الله تريد بي شيئاً آخر. أما هو فقد هاجر متجهاً نحو الشهادة.

أرجو من الله، أن يحفظ أفكار ونظريات ذلك الإنسان العظيم، حية في الأذهان. كما أرجو منكم أن تدرسوا مؤلفاته وأفكاره وأن تطوروا مواضيعها.

ناضلوا وسيروا على الدرب الذي انتهجه شريعتي من أجل تشخيص ومعرفة الإسلام الذي نريد، إسلام الثورة الإجتماعية، لا إسلام تقليدي وذاتي. . فهذا ما كنا ننتمي إليه دوماً دون جدوى.

إن مسؤولية الحفاظ على الثورة ومواصلتها، تقع على كاهل الجيل الجديد. إنني أعيش آخر أيامي، وقد وصلت إلى نهاية حدّي. أرجو من الله أن يحفظ ويوفق الذين لا زالوا على الدرب سائرين[١].

---

(١) فقرات من كلمة آية الله السيد محمود الطالقاني في جامعة طهران. بمناسبة ذكرى استشهاد شريعتي.

فرانز فانون(١)

«. . .، إن الاسلام سبق كل آسيا وأفريقيا في الكفاح ضد الاستعمار والغرب، لماذا؟ . . لأن الإسلام تعرض، قبل أي شيء آخر، في هاتين القارتين إلى حملات الاستعمار والغرب، فقد كان أعداؤه الألداء، أثخنوا جسمه بالجراح وشوهوه، لذلك نرى الحقد الأصيل للإسلام على الاستعمار.

إنني لا أحمل للإسلام نفس المشاعر التي تحملها أنت، ولكنني أتفق معك وأؤكد على كلامك بقوة ـ وربما أكثر منك أيضاً ـ بأن الإسلام في العالم الثالث هو أكثر العناصر والقوى (الاجتماعية والايديولوجية) التي تستطيع مواجهة الغرب، والتي لها

---

(١) البروفيسور فرانز فانون مناضل أممي كبير شارك مع جان بول سارتر والدكتور شريعتي في تنظيم أكبر عمليات احتجاج سياسي في باريس دعماً للثورة الجزائرية، واحتجاجاً على الاستعمار الفرنسي للجزائر وكانت تربطه بالدكتور شريعتي علاقة وثيقة، وترجم له شريعتي مقتطفات من كتابه «معذبو الأرض» إلى اللغة الفارسية.

بالأساس طبيعة مناهضة للغرب.

إنني آمل من كل قلبي، بأن يستطيع المثقفون الأصيلون في بلدانكم، التمسك بذلك السلاح الجبار، بذلك الاحتياطي الضخم من الثروة المعنوية والثقافية، الكامن في أعماق المجتمعات الاسلامية. إن ذلك ضرورة حيوية، من أجل توعية واستنهاض الجماهير، للكفاح ولمقاومة حملات أوروبا، ولمقاومة الأفكار والحلول والوساوس التي تتسلل إلى بلداننا من أوروبا.

إن التمسك بالاسلام ضروري لخوض تلك المعركة الدفاعية، ولإرساء الأسس من أجل بناء إنسان جديد وحضارة جديدة. لذلك فمن الضروري أن تُبْعث الروح الإسلامية في الكيان الشرقي الذي ضعف وانحطّ. إنني شخصياً لا أستطيع القيام بدور في ذلك، **ولكنني واثق بأنك واخوانك تتحملون مسؤولية آداء تلك الرسالة،**...»[١].

(١) مقتطف من رسالة بعثها فانون إلى شريعتي، وتعتبر من رسائله الأخيرة.

إحسان شريعتي

. . . إن إحدى الوسائل التي استخدمتها السلطة في محاربة شريعتي، كانت تشويه سمعته وتلويث شخصيته، التي أصبحت أسطورية، لقد قامت السلطة بإعادة طبع محاضرات له في جامعة مشهد حول الماركسية، بعد أن غيّرت في النص الأصلي، وزوّرت جوهره وهدفه؛ وكان هدف السلطة من وراء ذلك، هو بث التفرقة في صفوف الشعب، وفتح معارك جانبية، بغرض الإلهاء عن معركة الشعب ضد الامبريالية التي هي المعركة الأساسية، وبغرض صرف نضالات شعبنا لصالح الاستعمار وعملائه.

حاولت السلطة أن تستفيد من مقالات شريعتي، بغرض توسيع إطار معركة الاسلام ضد الماركسية وتعميمها على كل المجالات. بينما هي في الواقع معركة مطروحة على الصعيد الفلسفي. كل ذلك لكي يتم إظهار الماركسية، وكأنها العائق الأساسي أمام الشعب.

لكن شريعتي كان يقول: في الطب، من الأفضل تقوية مناعة الجسم بدلاً من استخدام الأدوية والوسائل الأخرى؛ وعلينا نحن أيضاً، أن نعتني بتطوير أنفسنا وتقوية صفوفنا بدلاً من الانشغال بالخصوم.

هكذا رأينا أن شريعتي لم يستخدم قلمه من أجل تفنيد الشيوعية وإسقاطها، وإنما وجه رماحه ضد الرجعية، التي سادت في بلادنا منذ العهد الصفوي، وكانت تمسخ الاسلام والتشيع بإظهارهما في صورتهما «الصفوية». لقد وقف شريعتي في وجه الرجعيين الذين تلبّسوا الإسلام، ليدعوا بأن محاربة السلطة القائمة إنما تخدم الماركسيين في النهاية، . . .

. . . ولكن شريعتي وقف موقفاً واضحاً ودقيقاً ضد الخصوم وأيديولوجياتهم المنافسة، موازناً في نضاله ضد القاسطين (الامبريالية والاستبداد)، والمارقين (الرجعية والاستحمار)، والناكثين (أدعياء اليسار الانتهازيين)؛ وإن مواقفه هذه أثارت ضده عداوات كثيرة، إذ تعرض لحملات ظالمة من قبل (أعداء عقلاء وأصدقاء جهلة)[1]

---

(١) فقرات من خطاب تأبين ألقاه إحسان شريعتي في ذكرى والده.

خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً واجربة سغباً لا محيص عن يوم خط بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين لن تشد عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه وينجز بهم وعده من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى.

(الحسين بن علي)

مقدمة المترجم[1]

«إن الحياة عقيدة وجهاد»

استشهد بلندن في ١٩ حزيران ١٩٧٧ الدكتور علي شريعتي المجاهد والمفكر الإسلامي الكبير عن عمر يناهز ٤٥ عاماً. وذلك بعد شهر وبضعة أيام من هجرته عن إيران.

نشأ الدكتور بين الفلاحين الفقراء في مسقط رأسه «مزينان»، وعاش بنفسه أنواع الفقر والعذاب الذي يسود كل بقعة من أرض إيران، بدأ حياته السياسية منذ أن كان طالباً في المدرسة الثانوية، وبعد ١٨ تموز ١٩٥٣ (يوم الإنقلاب العسكري المشؤوم ضد حكومة الدكتور مصدق الوطنية) انخرط في حركة المقاومة الشعبية، وفي عام ١٩٥٧ دخل السجن مع والده الأستاذ محمد تقي شريعتي وأربعة عشر شخصاً آخرين من أعضاء القيادة المركزية لحركة المقاومة الشعبية في خراسان. ثم أفرج عنه بعد ستة أشهر!

(١) إن المترجم آثر عدم ذكر اسمه فاقتضى التنويه.

بعد تخرجه من الجامعة ـ كطالب متفوق ـ سافر إلى فرنسا لاستكمال دراسته. وانضم إلى صفوف المعارضة الإيرانية خارج البلاد، ووضع قدراته الأدبية والفكرية في خدمة حركة التحرير الجزائرية وبدأ بالتعاون مع المفكر المناضل الإفريقي «فرانز فانون» وصحيفة «المجاهد» الناطقة بلسان حركة التحرير الجزائرية. .

اعتقل عام ١٩٦٥ في منطقة بازرغان على الحدود التركية ـ الإيرانية وبعد عام واحد أفرج عنه دون أن يعيّن في أية وظيفة لفترة طويلة. ثم عين كمعلم لمادة الإنشاء في الصف الرابع الإبتدائي في ضواحي مدينة مشهد (!!) وفي الحقيقة كان الدكتور يفتخر أن يكون معلماً منذ أن اختار لنفسه هذه المهنة هو في الثامنة عشرة من عمره وبقي معلماً حتى نهاية حياته، ولكنه ليس لتلامذته أو لآلاف من الطلبة بل للملايين من البشر الذين تحكمهم الأنظمة الإمبريالية.

في خلال هذه الفترة، بدأ تعاونه مع طلبة جامعة خراسان وكان كتابه الكبير «التعرف على الإسلام» ثمرة هذا التعاون الشريف.

من هنا انتشر اسم الدكتور علي شريعتي بين طلبة الجامعات الإيرانية وانفتح أمامه باب الارتباط الشامل بالطلبة في كافة الجامعات الإيرانية. .

بعد فترة أصبح شريعتي المسؤول الثقافي لـ«حسينية الإرشاد» وبدأ يدرّس فيها «كعالم إجتماع»، وفي الحقيقة فإن الدكتور قد

وجد رسالته في القيام بنفض غبار القرون عن جوهر الإسلام وحمل شعار «السيف والدم» و«الإمامة والعدالة» إلى جماهير الشعب الإيراني، وأن يعيد النظر في الدين القائم حتى يعود بالأمة إلى الدين الحيوي المتحرك الأصيل. لكي يشلّ القوى الرجعية ويمنعها من استخدام الإسلام لمصالحها من جانب، ويحرر الشعب من عوامل التخدير والجسود من جانب آخر..

كان يهمه: أن يكون حاضراً في عمق الجماهير ووجدانها، وأن يستخرج العناصر الحيوية الدافعة من أعماق الشعب والتاريخ، وليحرك الأمة باتجاه مستقبل أفضل. وينير الطريق لهذا الجيل.

فالسلام عليه لأنه رجل أدّى رسالته بصدق. وقام بمسؤوليته بوفاء تام.. لقد كان يحضر دروسه ألوف الناس من مختلف المدن الإيرانية، تجاوزت كتبه المائة. كان يُطبع من بعضها أكثر من مائة ألف نسخة.

كان كما يريد ـ كل حرف من كلماته (كخطب الإمام علي) رصاصة ساخنة، ومداده أفضل من دم الشهيد يصوّب «الحقيقة» في رصاص كلماته النارية إلى جيش الأعداء ـ وليوقظ به النائمين أيضاً.

لقد كان يضيء بنار أفكاره ليل الجماهير ويبعث الدفء في شتاء هذه الأمة المقهورة، كان يبعث برسائله إلى الجماهير المضطهدة. ولقد استشهد من بين صفوف طلابه الأقربين عشرات من المجاهدين حتى الآن.

لقد كان شريعتي شوكة في عين النظام الحاكم. من أجل نضاله لتحرير الشعب الإيراني المسلم، وبسبب دفاعه وحمايته المستمرة عن طليعة الثورة في المنطقة «الثورة الفلسطينية»، ودعوته الأمة الإسلامية إلى الوحدة ودعم الشعب الفلسطيني البطل. . لكل ذلك كان يتآمر عليه النظام الإيراني والقوى الرجعية.

مطر الدم في حديثه «مرة أخرى أبي ذر» كان يمطر الدم حقاً في عقل وقلب الآلاف من أبناء الشعب الإيراني. .

كان إسلامه إسلام محمد وعلي. إيمان أبو ذر وسلمان. عقيدة الحسين وزينب. .

كان يؤمن: بأن من لا يكون شاهداً على عصره، شاهداً على صراع الحق والباطل في مجتمعه فلا يهم أن يكون في أيّ موقع ومكان. أن يكون واقفاً في محراب العبادة. أم جالساً على مائدة الخمر.

كان يؤمن: أن لكل ثورة رسالتين «رسالة الدم» و«رسالة الكلمة»، وكان يقول «الذين استشهدوا قاموا بعمل حسيني وعلى الباقين أن يقوموا بدور زينبي وإلا فإنهم يزيديّون. . ».

وحقاً: عاش زينبياً واستشهد حسينياً

كان يؤمن بأن طريق الله والشعب، طريق واحد، وأن الله من دون الناس رهبانية وصوفية وليس إسلاماً حقيقياً، ولقد فدى بنفسه من أجل الله. . من أجل الجماهير أغلقت «حسينية إرشاد» في ١٥

تشرين الثاني ١٩٧٣ فاختفى الدكتور شريعتي ولكنه من أجل إنقاذ والده من يد النظام البوليسي الحاكم سلم نفسه للجلادين، لقد كان صبره في زنزانات الشاه صبراً جميلاً، حتى يئس النظام من إخضاعه بالعنف والقوة فنقله من السجن الصغير إلى السجن الكبير. سجن إيران الذي يسكنه ٣٥ مليون نسمة[١]!!!

ولكنه بقي ممنوعاً من الاتصال بالجماهير التي كانت تخلص له أعمق الحب والولاء. ولهذا هاجر إلى الخارج من إيران ليتابع مسيرة نضاله ضد النظام الفاشي العميل، ولكنه استشهد في ظروف غامضة بلندن بعد ٣٥ يوماً.

تحية له ولمن سبقه بالإيمان والعمل الصالح في سبيل الله ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

صدق الله العظيم.

٩ ـ ٨ ـ ١٩٧٧

(١) هذا الكلام في اواخر السبعينات، أما اليوم فعدد سكان إيران ٦٠ مليون تقريباً.

الحسين ونصره

بسم الله الملك القاهر الجبار المنتقم، أو كما قال أبو ذر: بسم الله رب المستضعفين.

في هذا اليوم، يوم كربلاء، أو «**عيد الدم**» عند الطائفة الإسلامية الشيعية تبرز «**الشهادة**» وقيمها بمعناها الأنبل والأكبر. وفي هذا اليوم، حيث الحسين هو الأنموذج للبطل التاريخي، سأتحدث إليكم عن «شهادة» هذا الشهيد الأعظم[١].

لقد تحدث وكتب الكثيرون عن موقف الحسين بطل كربلاء، وما زالوا يتحدثون ويكتبون، فذهب التقليديون في تفسير هذا الموقف مذهباً، وذهب المثقفون التقدميون مذهباً آخر. لكني فيما ذهبت إليه، بعد الإمعان في التأمل والتفكير، انتهيت إلى أننا لن نفهم هذا الموقف الحسيني في معناه الأدق وهدفه الأصدق، إلا متى فهمنا معنى «**الشهادة**» نفسها، ذلك أن عظمة الحسين من جهة

(١) محاضرة القاها العلامة الراحل على طلابه، وهذه المحاضرة تؤلف مضمون هذا الكتاب.

وتركيزنا على الفرد من جهة أخرى، جعلنا نضيع في بريق عظمة الحسين ما هو أعظم منه! وما هو أعظم من الحسين وهو: ما ضحى بنفسه من أجله!

لقد كانت عند الحسين قضية، وهو ضحّى من أجل هذه القضية، لكنا سقطنا في المأزق العاطفي إذ تكلمنا بسخاء عن الحسين ونسينا بسخاء مماثل القضية التي كان لها الشهيد الأكبر، والتي كانت عظيمة عندنا، عظيمة في تاريخ البشرية، عظيمة بين يدي الخالق وخلقه.

وعندي أن هذه القضية بمعناها الأدق هي «**الشهادة**» وهي مذهبي في تفسير موقف الحسين وبطولاته. وعلى هذا فإني سأطرحها أمامكم الآن من زاوية مغايرة، فأنا أنظر إليها كمسألة فلسفية على ضوء الفكر، وبكلمة: أني أفكر وأستدل، وأستعين بالعلم والمنطق. وعلى هذا، ومن حيث يبدو هذا الطرح أمراً مستعصياً، فإني سأبحر إليه في حدود قدرتي وفهمي ومعرفتي.

وليس سراً أن ما تثيره قصة «**الشهادة**» من معان زاخرة بالإثارة والدهشة، هو مما يشل المنطق ويحبط القدرة على التفكير. فالشهادة هنا هي «مزيج» من العاطفة الملتهبة الجياشة ومن الحكمة العميقة المعقدة، والحديث عن هذين العنصرين في إطار واحد يجعل الكلمة قاصرة عن الوصول إلى مرادهما. ثم إن المسألة تصبح أشد تعقيداً بالنسبة لإنسان مثلي تنقصه قوة الروح وحرارة العاطفة. وعذري هو أن ما أريد قوله كامن في حدود قدرتي ولعلي

بالغ من ذلك بعض ما أردت غير مغال في قليل أو كثير.

وأبدأ فأقول: إن أول شروط الوصول إلى سر «**الشهادة**» هو إبراز معالم المدرسة التي اتخذت هذه الشهادة في ظلها معناها والتي في إطارها تتبلور لها قيمة خاصة. وهذه المدرسة هي التي يشكل الحسين أحد معالمها.. فالنضال التاريخي الذي يعتبر الحسين أحد حملة ألويته وكربلاء إحدى ساحاته، هذا النضال هو جزء من حركة التاريخ وحلقة في مسيرة نضالية تاريخية كانت في عصور مختلفة وعلى جهات متعددة وستبقى[1]. ذلك أن الحسين صورة لحلقة متصلة في تلك السلسلة من التاريخ **الإبراهيمي** ويجب أن تُفهم تلك الصورة، بل وأن تكون، على هذا الأساس. وما من شك في أن طرح قضية الحسين معزولة عن ترابطها التاريخي، وبالتالي إعطاء معركة كربلاء صورة الحادثة العابرة، يؤدي إلى تجريدها من أسسها التاريخية ودوافعها الاجتماعية ومن ثم إفراغها من مضامينها الأساسية واستمراريتها المتجددة، لنجعل منها، وهذا ما حدث، مجرد واقعة مأساوية لا نملك أمامها إلا أن نبكي، كما نبكي اليوم. لنستنتج من كل ذلك أن فصل الحسين وقضيته عن الجذور التاريخية للمدرسة العقائدية التي أنبتتهما هو بمثابة

---

(١) «من أجل إيضاح أصول البحث لا بد من الإشارة إلى ما ورد في محاضرات سابقة وهي لا تحتاج إلى إفاضة، فقد سبق أن مرت تفاصيلها على الحاضرين» ويشير المحاضر هنا إلى تلاميذه الذين كان يلقي عليهم محاضراته بشكل منتظم.

بتر عضو في جسم حي، لدراسته أو الاحتفاظ به!

الأنبياء من طبقة محرومة

لقد أشرت في محاضرات سابقة إلى أن الثورات الدينية التي قام بها الأنبياء منذ القدم، إنما تُصنّف على ضوء مضامين تلك الأديان والطبقة التي كان ينتمي إليها أولئك الأنبياء ثم علاقاتهم الاجتماعية وكذلك اتجاه الدعوة التي دعوا إليها. وعلى هذا الأساس فإن جميع أنبياء التاريخ «الصادق» منهم و«الدعي»[١] كل من أحدث حركة دينية تاريخية، يفرزون إلى مجموعتين:

الأولى: ويُعتبر إبراهيم أبرز بُناتها، ومنها الأنبياء الذين جاؤوا بعده وتعرفنا عليهم ـ لقربهم التاريخي منا ـ فهؤلاء ينحدرون وينتمون إلى طبقة محرومة واحدة وقال عنهم نبي الإسلام «إن أكثرهم رعاة ماشية»، كذلك قال عنهم التاريخ باستثناء قلة منهم كانوا يمتهنون حرفاً متواضعة لا تسد الرمق.

وأما الثانية فأصحابها هم على نقيض المجموعة الأولى من حيث الطبقة والوضع الاجتماعي، فهؤلاء الأنبياء أو أصحاب المدارس الفكرية والأخلاقية، سواء كانوا من الجنس الأصفر في الصين أو من الإيرانيين أو من أصحاب المذاهب الفلسفية والأخلاقية في اليونان، والذين هم في نهاية المطاف من خارج الدائرة الإبراهيمية، فإنهم جميعاً ومن دون استثناء كانوا من أبناء

---

(١) المقصود من الأنبياء هنا مفهومه اللغوي.

الطبقة النافذة المرفهة في مجتمعاتهم، أي من أبناء الأمراء والأشراف ورجال الدين والمال، سواء عن طريق الأب أو الأم أو الإثنين معاً: كذلك كان كونفوشيوس، ولاوتسو، وزرادشت، وماني، ومزدك، وسقراط، وأفلاطون وأرسطو.

وقراءة تاريخ الطبقات تفيد أن الطبقة المسيطرة في المجتمع القديم كانت طبقة الأمراء وذوي الثراء ورجال الدين الذين كانوا يتوزعون فيما بينهم النفوذ السياسي والاقتصادي والعقائدي، وهم سواء اختلفوا أو اتفقوا فإن اختلافهم أو اتفاقهم إنما كان على حساب الرعية وليس لها.

وعندما يذكر «القرآن»: (**الأميين**):

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾[١].

فإنما هو يعني بالأميين أبناء الطبقة المحرومة من الرعية، أما «الرسول الذي منهم» فهو (الرسول الإبراهيمي) الذي هو من هذه الطبقة. وبالتالي فإن هذا الإنسان المرسل ليس ملاكاً وإنما من البشر، من عامة الناس، من صميم تلك الطبقة المضطهدة وليس من الخاصة المصطفاة. وإذا قال القرآن:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢)سورة إبراهيم، الآية: ٤.

فهو لا يعني أن موسى يتكلم العبرية ومحمد ﷺ يتكلم العربية، كما يتوهم الكثيرون ـ فهذه حقيقة لا تحتاج إلى تأكيد، والنبي الذي يبعث في العرب لا يتحدث بالصينية أو اليونانية ـ بل أن «اللغة» المقصودة هنا هي لغة الطبقة التي ينتمي إليها النبي المرسل. اللغة التي تتحدث عن آلامهم وآمالهم. ثم إن الحديث بلغة هؤلاء الناس إنما يعني: رفض لغة المثقفين (في الأمس واليوم) الذين يتحدثون بلغة خاصة بحيث لا تفهم الجماهير لغتهم ولا هم يفهمون لغتها.

من هنا فإن حديثنا عن (الأنبياء الإبراهيميين) هو حديث هذه الجماهير، تماماً كما أن ظهور هؤلاء الأنبياء يختلف عن ظهور الأنبياء الآخرين، ففي حين كان هؤلاء يتوسلون القوة لإشاعة عقائدهم كان الإبراهيميون يعتمدون على الجماهير في نضالهم ضد القوّة الغاشمة!! كان لإبراهيم عكازه، ولموسى عصاه التي دخل بها قصور فرعون، فأغرقه وجيشه في اليم، وخسف بقارون وكنوزه الأرض، وأخيراً كان لنبي الإسلام يتمه وضعفه، فما إن انتهت فترة الإعداد حتى نهض للجهاد. فكانت له حرب في كل خمسين يوماً، حتى بلغت غزواته خمساً وستين غزوة في مدة لا تزيد عن سنوات عشر. تلك كانت معاجز هؤلاء الأنبياء وهي معاجز تتناسب مع رسالاتهم: تمزيق السحر بالعصا وضرب فرعون في عرشه، ثم تبيان القرآن الإعلامي لحقيقتين هامتين وهما: أنه والإسلام لم يأت بهما محمد ﷺ من عنده.

كان محمد وعداً للعبيد

على أن ديناً واحداً كان له على امتداد التاريخ ظهور يتلاءم وظروف عصره وبيئته. وهذا الدين كان الإسلام، وقد أكد «القرآن» هذه الظاهرة الفذة معطياً الإسلام رؤية تاريخية شاملة، مستوعباً ومضيفاً إلى ثورته جميع الثورات التي قاومت الشرك وناهضت الأقوياء في سبيل الضعفاء، معتبراً تلك الحرب واحدة في جميع الأزمنة وعلى كل الساحات، وفي بعض الآيات تبدو رؤية القرآن التاريخية واضحة في وضعها لكل هذه الثورات في حلقة مترابطة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة تتلمس ثلاث حقائق مترابطة آخذة بعضها بأطراف بعض:

١ ـ آيات الله.

٢ ـ الأنبياء.

٣ ـ الذين يدعون للعدالة.

إنها تضع:

«الذين يكفرون بآيات الله» و«قتلة الأنبياء» و«قتلة طلاب

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

العدالة» في صف واحد وتحكم عليهم حكماً واحداً. وهذا هو الفهم الإجتماعي، وتلك هي فلسفة التاريخ البشري وتفسير ثوراته التاريخية كما عرضها القرآن. لقد كان نبي الإسلام آخر رسول لذلك الدين الذي بعث أنبياءه ليعلموا الناس (الحكمة) و(الكتاب) و(العدالة) والذين أكد القرآن على رسالتهم الواحدة، الرسالة المشعال من نبي إلى نبي ومن رسول إلى رسول. وكان آخر معلم من أولئك الأنبياء الذين ناضلوا ليحرروا الإنسان من العبودية بالدعوة إلى عبادة إله واحد. وهو في ثورته الكبرى تلك حقق هاتيك الرؤية الإنسانية الشاملة النابعة من وحدة التاريخ البشري، واهباً الأجناس والملل على اختلاف ألوانها وتعدد طبقاتها وتنافر رؤاها، تلك الوحدة التي مزقت الشرك من حيث كان الشرك أساس التفرقة.

لقد كان شعار التوحيد في الإسلام شعاراً للتحرير، وقبل أن يتوجه محمد بن عبد الله ﷺ بهذا الشعار إلى المثقفين والخطباء والمتعلمين والقادرين والفلاسفة، توجه به إلى العبيد والمعذبين والمستضعفين والجياع الذين كانوا يؤلفون في مكة الطبقة المحرومة والذين شكلوا مجموعة المسحوقين والأرذلين، وقد أخذ كبار مكة وقادتها من أعداء الرسول، أخذوا عليه بأنه لم «يتبعه إلا الأرذلون» وكان هذا المأخذ أكبر شهادة زكّت الإسلام وثورته. فقد خرج محمد من المستضعفين وإلى المستضعفين، في حين خرج قادة البوذية في الهند والصين من أشراف الهند والصين؟! لكن اليوم مع الإسلام تختلف القيم!!

كان محمد بن عبد الله، رسول الإسلام، وعداً للعبيد الذين ظنوا أن العبودية هي مصيرهم الأبدي.

وعداً للمحرومين المسحوقين الذين اعتقدوا أنهم، تحت وطأة القوى السياسية والفكرية والأدبية والعسكرية التي كانت في خدمة السادة، مخلوقون للقهر والذل والخنوع.

وعداً للمستضعفين الذين ظنوا أن أعداءهم من الآلهة كتبوا عليهم هذا المصير ليكونوا في خدمة الأقوياء. ولقد كان هذا هو فكر الأقوياء: فإذا تحدث (ماني) عن (النور والظلام) كان المنكسرون البؤساء من (الظلمة) والفاتحون المنتصرون من (النور):

ماذا كان يقول الفكر النبوي الخارج عن الدائرة الإبراهيمية المتفلت من غير إطارها؟

كان أرسطو وأفلاطون يقولان أن الله أو الطبيعة خلقت البشر صنفين:

العبيد والأحرار، الأحرار حتى يتأتى لهم صنع الحضارة بالفن والشعر والموسيقى، والعبيد بما يتكلفون به من خدمات حقيرة يؤدونها للأحرار.

أما محمد بن عبد الله فقد أعلن أن البشرية من جنس واحد وأهل واحد ذات إله واحد، وبمبدأ المساواة هذا، بنى مجتمعاً إنسانياً جديداً على ضوء عقيدة وطيدة ونهج اقتصادي واجتماعي متين.

فلم يعد غريباً اذن أن يقوم مجتمع المدينة الذي استرد فيه (بلال) ـ وهو العبد المسحوق ـ قيمته وشرفه الإنسانيين أو أن يفاجىء سالم ـ مولى حذيفة ـ العرب واليهود بأن يؤم المصلين في مسجد «قباء» وهو الذي عرفته قريش عبداً ذليلاً متسكعاً.

إن بلالاً يعترف له، بالقيمة الإنسانية، الأكابر من قريش وسادة العرب، وأن سالماً يسجد خلفه للصلاة الأكابر أسقطها واضعاً قيماً جديدة ونبيلة لمفهوم الشرف والسيادة المجتمعين، آمراً بتقصير اللحى الطويلة والثياب لأن جر الثوب يورث الخيلاء، مشيراً بأن يمشي الإنسان على الأرض هوناً، فإذا ركب فليردف أخاه المسلم خلفه، ثم يذهب إلى أبعد ضارباً المثل بنفسه، فها هو يركب الحمار العادي ليسقط بذلك قيم الشرف القديمة في نظر أصحابها، وها هو يوغل في المساواة فيقول لمن تصيبه الرعدة من هيبته الرسولية: هوّن عليك فأنا ابن امرأة كانت تأكل القديد!

تلك هي مدرسة الإسلام التي اختطت للحسين، حفيد المعلم الأكبر، فيما بعد طريقه. تلك هي مدرسة الإسلام التي قادها آخر راع من الأنبياء الذين كان أكثرهم رعاة ماشية، وآخر رسول في سلسلة أولئك الرجال الذين كانوا يبرزون على حين غرّة في الصحراء القاحلة الصامتة ليقارعوا آلهة القوّة والمال وليهتكوا أقنعة الزيف.

علي أول الشهداء:

على أن الفاصل بين حقيقة الإسلام وواقعه، وبين مجرى الحوادث التي طرأت بعد وفاة الرسول مباشرة، كان فاصلاً ضئيلاً

جداً باديء الأمر، والزاوية بين مدرسة الإسلام وتاريخه كانت بدورها جد قصيرة، لكنها ما لبثت أن أخذت في الاتساع حسب امتداد المسافة التي أخذت تقطعها قدماً على طريق الانحراف، ثم انتهت إلى أن اتسعت آلاف الكيلومترات، فإذا أضيف إلى هذا الاتساع عوامل أخرى، امتدت المسافة حتى أخذ كل ضلع من خطى الزاوية اتجاهاً آخر مبتعداً كل عن الآخر في رحلة معاكسة. ولقد كان ذلك بعد خمسة عشر سنة من قبض الرسول حين أصبحت الخلافة، التي تمثل مركز الإسلام، أرضاً ممغنطة جذبت إليها كل العناصر المضادة لثورة الإسلام.

وعلى هذا الجسر عبرت هذه العناصر الخنادق الفاصلة بين الإسلام والجاهلية، فأسقطت أهم قاعدة شادها المهاجرون والأنصار، وأصبح «الخليفة» أداة في أيدي أولئك الذين وترهم الإسلام، وبواسطتها استعادوا قواهم وجمعوا أمرهم ليستردوا النفوذ البائد الذي قوضته الثورة. وقد صادفت هذه الردة نجاحاً ما لبث أن أصبح أساساً للفواجع التي تلت، بل قانوناً استمر على امتداد تاريخ طويل.

ولا أقول هنا أن هذا القانون، لا مفر منه، لكي يصبح قانون «إن الثورة تأكل أبناءها» مبدأ وارداً في الإسلام، لكن عثمان كان أداة في أيدي أولئك الذين عملوا على إبادة الأبناء الحقيقيين للثورة الإسلامية، فتقوض ذلك البناء الذي شاده «أبناء الثورة» لسيوفهم وجهادهم وصبرهم وتضحياتهم، على يد بني أمية. وفي هذه الفتنة

التي عبّأت عناصر الردّة وبثّت الروح من جديد في الجسم المشلول لأعداء الثورة، كان علي بن أبي طالب أولى الضحايا.

ولقد كانت سيرة علي السياسية والاجتماعية والفكرية بداية نضال جديد هو نضال المؤمنين بالقيم الجديدة، والشعارات النبيلة التي رفعها الإسلام ضد هذه الجاهلية الجديدة التي دبت فيها الروح بفعل حرارة النفاق، ودب فيها الحسد الذي اعتمل مجدداً في القلوب، فأعلنت حربها الخفية آناً والصريحة في آن آخر على أنصع الوجوه في مسيرة الثورة. كانت معركة الإسلام في زمن الرسول بين معسكري الشرك والتوحيد، لكنها مع علي أضحت معركة بين أبناء الثورة الأنقياء وبين عناصر الثورة المضادة التي اتخذت شكلاً جديداً في ظل الإسلام.

كذلك كانت حرب محمد وأبي سفيان تختلف عن حرب علي ومعاوية. كانت الأولى حرباً بين عدو وعدو، أما الثانية فكانت حرباً بين الصديق وشبه الصديق، كانت خطورتها في أنها حرباً داخلية، ولطالما انتصرت الثورات على أعدائها في الخارج لكنها طالما منيت بالهزيمة على يد أعدائها في الداخل. من هنا كانت حرب الإسلام على النفاق واعتباره أعظم من الشرك.

لقد كانت معركة محمد ﷺ إحدى مظاهر انتصار الإسلام على الشرك الصريح في الجبهات الخارجية، أما معركة علي فكانت مظهراً من مظاهر الهزيمة في الجبهة الداخلية. فقد خاض علي حربه ضد الجاهلية المستجدة التي لبست لبوس الإسلام، وضد

الشرك الذي اتخذ شكل التوحيد، وضد الوثنية ذات المصاحف المرفوعة على أسنة الرماح. خاضها حرباً طويلة ومريرة، ثم ما لبث أن لقي مصرعه على يد المتطرفين الخوارج الذين كانوا لعبة في يد أعدائهم الأذكياء. إلى أن ضعفت قوى الثورة الحقيقية تحت ضربات الجاهلية الجديدة، واستمرت الأيام تغيّب وجه الثورة الأصيل إلى أن جاء الحسن!!

الحسن الغريب

كان الحسن وارثاً لتركة أبيه، ممثلة بالحكومة التي خلفها والجيش الذي نفذ النفاق إلى أعمق أعماقه، فسقط قادته تحت إغراء وعود وأموال السلطة الأموية في الشام، بحيث كانوا على استعداد للمساومة على القائد والعقيدة، وكانت صفقات بيع القيم والشرف تُعقد في دمشق عاصمة الأمويين (!) ومقابل هذا الانهيار الأخلاقي في الداخل، كانت أهم البقع وأغناها قد وقعت في يد العدو، يتحرك عليها بكل حرية، في حين كانت قوات الحسن عاجزة عن الوصول إليها.

أما في العراق نفسه فكانت روح الشقاق قد تفشت واتسعت الشقة بين الأجنحة، فطبقة الأشراف تخاذلت عن الالتزام بالمباديء العلوية التي يستند إليها حكم الحسن، بينما كانت الجماهير الكادحة غارقة في الضعف والجهل والتراجع تحت تأثير الخوارج، الذين اتخذوا موقفاً فظاً متشدداً استهدف التأثير على العامة!

وفي هذا الخضم وقفت مع الحسن البقية القليلة الباقية من مناصري الثورة الإسلامية والأكثر وعياً لمبادئها، لكن هذه القوة سرعان ما أخذت في الضمور أمام القوى الداخلية المعادية، فكان إن وقعت الكارثة التي قوّضت «إسلام العدالة» وأبقت على «إسلام الأشراف والنخبة» فكان الصلح الذي فُرض على الحسن فرضاً، وبالتالي كانت الهزيمة. ونقول هزيمة لأن المنهزم يُفرض عليه الصلح فرضاً وكان الحسن في منظور الأحداث.. منهزماً!!

وقد عاش الحسن في المدينة مجرداً من سلاحه، هو الذي كان يمثّل روح الثورة على الجاهلية المستجدّة، حيث وجد حتى من أسرته من يعاديه، وصار لا يأمن جواسيس بني أمية حتى داخل بيته، وسهل على معاوية أن يشتري ضمير زوجته فأقدمت على دس السم له في جرعة العسل. ولعل النظرة إلى المستوى الذي وصل إليه الناس، يومئذ، في علاقتهم مع الإسلام الحقيقي الذي يمثله الإمام الحسن، ترينا الموقف العنيف الذي جوبه به عند دفن جثمانه. فقد أوصى إلى أخيه بأن يدفن قرب جده، فرفضت السلطة الأموية بعنف تنفيذ الوصية! وفي المدينة، مدينة جده وأبيه ومأوى الأنصار والمهاجرين، نفي جثمان الحسن، ليدفن أخيراً في مقبرة المدينة العامة المعروفة بـ«البقيع».

ومظهر الغربة هذا، وبالتالي مظهر الضعف الذي كان يحيط بالحسن وهو في مدينة جده، إنما هو صورة لضعف جبهة النضال والحق التي كان يمثلها، والتي تعرضت لهجمة رجعية شرسة

أشعلت ضدها نار الحرب في كل الميادين وفرضت سيطرتها على كل الساحات!

ولقد جاء الآن الحسين!!

الحسين ودوره التاريخي

الحسين كان وراث الإسلام، ووارث تلك الثورة التي فجّرها جدّه وواصلها أبوه وأخوه، لكن الحسين، في المقابل، لم يرث جيشاً ولا سلاحاً ولا ذهباً، وبالتالي لم يرث أية قوة جبهوية تذكر، ولا حتى مجموعة منظمة!! وكان هذا يعني باديء ذي بدء أن القيادة الحسينية التي آمنت بالنضال وأقرته كقاعدة أساسية لوجودها، هذه القيادة كانت، ككل قائد أو إمام يؤمن بالنضال، غير حرة في اختيار طريقة هذا النضال، وإنما كان عليها أن تخضع للظروف التي تحيط بها، والتي تفرض عليها شكلاً معيناً من أشكال الحروب. وهذه الظروف تتحكّم فيها شروط الضعف والقوة عند العدو ومن ثم تقدير الموقف العام. لذلك لن يتسنّى لنا معرفة الأسلوب الذي اختاره الحسين لثورته ما لم نعرف الظروف العامة والخاصة التي تحيط به، والشروط التي أوجبت عليه اختيار ذلك الأسلوب.

كان ظهور الدور الحسيني في سنة ستين للهجرة، حيث الأمة بانتظار رجل تاريخي ينهض بأعباء الدور القيادي، ويكون حارساً ومسؤولاً عن هذه الثورة الكبرى التي أطلقها محمد بن عبد الله، والتي أخذت دعائمها تتقوض تحت ضربات بني أمية وأعوانهم.

وكان دور الحسين هنا شاقاً لأنه كان دوراً تاريخياً. لقد تلفّت حواليه ونظر إلى الأوضاع السائدة من حوله، فوجد أنه مسؤول عن حراسة ثورة فقدت آخر قاعدة من قواعدها، وآخر قلعة من قلاعها، وآخر قيمة من قيمها، ولم يبق من تراث جده وأبيه وأخيه الذي يشكل وجه الإسلام وصورة الحق والعدل، سيف أو جندي واحد!

كان الواقع الاجتماعي والسياسي والأمة مشرفة على سنة ستين للهجرة على الشكل التالي:

كانت قد مرّت سنوات طويلة وبنو أمية ماضون في تقويض الثورة الإسلامية وقواعدها الاجتماعية، وإسقاطها قاعدة أثر قاعدة من جهة، وقريش تصادر كل منجزات هذه الثورة وكل قيمها لتسخرها في خدمة أغراضها الخاصة من جهة أخرى. أما أنصار الثورة وتلامذة محمد ورفاقه الأوائل فكانوا، عقب الغاء ونسف مركز الحكومة الثورية الإسلامية في المدينة، قد انقسموا إلى ثلاث فئات:

ـ **الفئة الأولى**: لم يؤات الصبر أفرادها على تحمل ما يجري من هتك للقيم الإسلامية الشريفة، فجاهروا بالثورة ورفعوا الصلوات و.. وقتلوا.

كان أبو ذر، وعمار، وعبد الله بن مسعود، وهيثم، وحجر بن عدي قد سلكوا طريق الشهادة، وكانوا روّاد وقادة هذه الفئة الأبرار.

ـ **والفئة الثانية**: انتهت إلى أن الجنة التي ينبغي نيلها «تحت

ظلال السيوف»، والتي كان «الجهاد باباً من أبوابها»، يمكن نيلها عن طريق أكثر سهولة وأقل نصباً، وهو طريق الزهد والعبادة واعتزال الناس، وكان ممثل هذه الفئة عبد الله بن عمر. وهذا الموقف السلبي كان غريباً من فئة كان من أفرادها رجال صحبوا الرسول وتربوا في مدرسة الإسلام، وأدركوا معاني الجهاد والتضحية في سبيل الحق. لكنهم ما لبثوا في تلك الفترة التاريخية الحرجة ـ التي تتطلب جهر الصوت والدعوة إلى العدل ـ أن انكفأوا عن ساحة الحرب بين الحق والباطل، واعتزلوا في أروقة المساجد وخلايا البيوت، مضحين بنخبة جيدة من أبطال الحق لصالح الظلم والردّة، في حين كانت الأمة، وهي تتلوى تحت سياط بني أمية، تنتظر منهم موقفاً صريحاً يقاوم الإنحراف ويقف في وجه الظلم. لقد آثروا السلامة من حيث التضحية والجهاد سبيل السلامة!

ـ **أما الفئة الثالثة**: وأفرادها كان لهم شرف الجهاد مع الرسول في بدر وأحد وحنين، ونالوا مفاخر التضحية في مدينة الهجرة والجهاد، فقد باعوا ماضيهم وانتهوا إلى الدّعة والراحة في «قصر الخضراء» عند معاوية، يقبضون الأموال ويتقاضون الرشاوي، وعلى منوال أبي هريرة يسلكون طريق ابتداع الأحاديث واختلاق المتون لإسناد حكم من؟! حكم من ظلم الرسول وآل بيت الرسول وثورة الرسول وقيم الرسول.. حكم معاوية!

ويكاد ينتهي بنا التحليل هنا إلى إدانة موقف هاتين الفئتين الأخيرتين.

فأما الفئة التي اعتزلت النضال إلى المعابد في لحظات عصيبة كهذه، فقد كانت أيديهم ملوثة بدماء أبطال طاهرة، وهذه الدماء هي دماؤهم هم، وهؤلاء الأبطال هم أنفسهم. ذلك أن الفرد أو المؤمن الحق الذي يعي كامل المسؤولية ويمتلك القدرة على تشخيص الموقف، وبالتالي فرز الحق عن الباطل، إذا اعتزل المعركة ورفض في نفسه قناعة العقائدي الأصيل وجهاده التضحوي، يكون قد صفى وقوّض حياة بطل من أبطال تلك المعركة لصالح الظلم وهذا البطل هو.. نفسه!!

أما الفئة الثانية فكانت على الإسلام أشد وأمر وأدهى، فما رأيك بأصحاب الرسول ورفاق جهاده يبيعون قيم الرسول وشرف الرسالة بالدريهمات ويقايضونها بالدعة؟! ما رأيك بأن ينتهي الأمر بصحابي كأبي هريرة، هذا الذي يحمل علماً وأحاديثاً كثيرة عن رسول الله، يلفق الأحاديث ليدعم معاوية، ثم يسعى ليزيد في حادثة حبه الشهيرة لزوجة عبد الله بن سلام؟

لقد كان أفراد هذه الفئة هؤلاء، هم رموز الجيل الذي كان يشكل جيل الثورة الإسلامية الثاني، وجُلّه من الشباب، والذي لم يشهد انتصارات الإسلام الأولى، وعليه أن يسمع عن بطولاتها من أفواه الجيل الذي رافقها، فإذا به يرى ويشهد أعلام هذه الثورة، ممن كانوا رموزه ومُثُله، يسقطون واحداً أثر واحد في مهاوي المذلة وشراك التنكب عن القيم! فأي أسى وأية خيبة وأية مرارة سيستشعرونها حيال هذا الأمل العظيم الذي يسمى «الإسلام»، وهم

يرون سواد مواقف رواد الإسلام من جيل الرسول وثورته؟

انتفاضة حجر بن عدي

على أن الرجاء لم يكن مقطوعاً!

وكانت بشائر الثورة تطل من خلال هذا الجيل نفسه!

وهي، وإن كانت حركة لم تتوفر لها بعد أسباب النضج، إلاّ أنها كانت عبر قائدها حجر بن عدي قد هيّأت في الكوفة، بعد استشهاد أبطالها، المناخ السياسي والاجتماعي لثورة الحسين.

إذن.. كان في صفوف هذا الجيل الثاني من الشباب حركة مقاومة تجري على الألسن وتتبلور في أروقة المجتمع الكوفي، وكان الناطق باسم هؤلاء الشباب، ولسان الثورة المتحفزة، الصحابي الجليل حجر بن عدي. وكان حجر قد أدرك رسول الله وهو غلام(١) وخاض معاركاً مع علي وهو شاب، أما في زمن الحسن فكان سياسياً لامعاً ومناضلاً واعياً مسؤولاً، وقد لام الحسن بشدة لتوقيعه وثيقة الصلح مع معاوية، وفيما بعد كان الحسن(٢) أقنعه بسلامة موقفه حيال معاوية.

---

(١) هناك خلاف في اعتبار حجر بن عدي من الصحابة أو من التابعين. لكنني من خلال دراستي لحياته انتهيت إلى أنه كان غلاماً في زمن الرسول ولم يبرز دوره إلا في زمن الإمام علي حيث كان أحد الوجوه البارزة حوله في صفين.

(٢) يقال أن الإمام الحسن أقنعه فيما بعد في حديث جرى بينهما لم يكشفه لنا التاريخ وأن حجراً خرج من مجلس الحسن راضياً. كما ذكر هذا اللقاء طه حسين إذ قال أن الحسن أقنع حجراً وسليمان بن صرد الخزاعي الذي كان من معارضي الصلح، وبين لهما أن لا فائدة من الحرب التقليدية المنظمة حيث لن تؤدي إلاّ إلى المزيد

على أن حجراً كان قوي الشكيمة لا يسكت على الضيم، وممن لا يقولون نعم، طلباً للدعة والمهادنة، ولم يكن بالرجل السهل ليقنع بمنطق التقية وأسلوب العمل السري الثوري كما أشار عليه الحسن، ولم يكن ليتخاذل وهو يرى المزيد من تفشي الظلم، وشراسة التسلط، ومصادرة الحريات، واغتصاب الحقوق، وهيمنة الدكتاتورية المطلقة، والعبث بالمعطيات الإنسانية للثورة الإسلامية، ولم يفت في عضده إعلان وثيقة الصلح بين الحسن ومعاوية، فكان إن شهر سيفه ضد التسلط الأموي مشكلاً في العراق رأس الحربة وصوت الثورة المدوّي الذي فرض نفوذه بعد صلح الحسن على جميع الحواضر الإسلامية. وما لبثت هذه الثورة أن ازدادت اتساعاً وحرارة وعنفاً وضراوة ضد كل ألوان البشاعة الأموية الخانقة لقيم الحرية والعدل. لكنها ثورة لا يكتب لها النصر بقدر ما يكتب لأبطالها الشهادة، إذ لا يلبث حجر بن عدي أن يسقط شهيداً، بعدما لفق له الحكم الأموي تلك الفتوى المزوّرة[١]. وقرب دمشق ـ في مرج عذراء ـ يقطع رأس حجر

من الضحايا وإلى إضعاف جبهة الحسن، وأن كل مقاومة علنية لن تخدم هذه الجبهة. وأضاف طه حسين: من أن الحسن طرح أسلوباً جديداً للعمل هو تأسيس تشكيلات تتسم بسرية العمل والحركة والمقاومة الخفيّة المنظمة. وأنه في هذا اللقاء وضعت أسس تلك المقاومة التي شملت خلاياها رقعة الوطن الإسلامي يومذاك وظلت تشكل المعارضة العنيفة طوال قرنين من سلطان الدولتين، الأموية والعباسية.

(١) حين قام حجر بن عدي بانتفاضة قبض عليه أمير الكوفة هو وجماعة من أنصاره وسيرهم إلى معاوية في دمشق، تشهد ضدهم وثيقة موقعة من قبل شخصيات

وتقطع رؤوس أصحابه ثمناً لتمسكهم بقيم علي وتعاليمه ومدرسته ومناقبه ومثله.

تيار الجاهلية الجديد

ها هو الآن، جيل الشباب من المسلمين، جيل الثورة الثاني، يواجه مرارة الهزيمة على يد بني أمية بعدما صفيت ثورته بالسيف وبالمال طوراً وبمحاضر الزور والبهتان وتلفيق الفتاوي طوراً آخر.

وها هي قواعد الثورة انهارت أو استسلمت أو التجأت إلى معابد، معتزلة الناس، تاركة مصيرهم للمستبدين والطغاة القساة، أو حامت حول «قصر الخضراء» عند معاوية وقد استحوذ المال على بصائرها، فمنعها عن رؤية الله ورؤية رسوله والمؤمنين.

وها هم بنو أمية يلجأون إلى سلاح غير سلاح القهر والقمع

الكوفة بخروجهم على الله ورسوله وإخلالهم بالأمن وإثارة الفتن. وفي طريقهم إلى دمشق قابلهم فريق من رجال معاوية وطلبوا منهم أن يبرأوا من علي حقناً لدمائهم فرفضوا، فجرى قتلهم في مرج عذراء.

وكان مقتلهم صفعة عنيفة لمظاهر السلوك الذكي الذي كان معاوية يتبعه في التشبه بالخلفاء، من حيث التحلي بالحلم والرأفة، لكن هذه المظاهر نُسفت بقتل هؤلاء النخبة الأثيرة لدى المسلمين، وفي طليعتهم الصحابي الجليل «حجر بن عدي». وقد شجب المسلمون هذه الجريمة، وعبرت عائشة عن غضبها لمقتلهم بلومها الشديد الذي وجهته لمعاوية.

وكان معاوية يذكر مقتلهم فيأكله الندم، ويخالطه الخوف من عاقبة ذلك حتى اللحظات الأخيرة.

(المؤلف: عن السيد حسن أكبري مرزناك في كتابه «حجر بن عدي»).

والبطش والمال، بل إلى أسلحة أفتك وأشد وأدهى، فيطلقون تيار «الجاهلية الجديدة» لاجئين إلى مخطط جديد يهدف إلى زعزعة الإيمان وتجميد الفكر وشل القيم وإطلاق الرغبات وإشاعة الابتذال وخنق الحرية ونشر الفكر العبودي. وكان هدف الحملة الجاهلية الجديدة: العقول والنفوس لهدم البناء الروحي الذي كان إحدى معطيات الإسلام وشل قواه وطمس معالمه في القلوب.

كان هذا التيار الجاهلي يعلم أن تقويض البناء الذي شاده محمد ﷺ ومقتل علي، وهزيمة الحسن، والإبادة اللئيمة التي استهدفت جميع قواعد الثورة، والقتل الجماعي لحجر وجماعته، وممارسة البطش والنفي والمصادرة والحرمان على الثوار الأصليين من أبناء المدرسة العلوية، وتحييد وجوه الصحابة وإغراء بعضها بالجاه والمال، وقهر كل قوة نضالية، وتقليم أظافر المعارضين، ومطاردة كل حركة ثورية في كل الساحات... كان هذا التيار يعلم أن ذلك كله، مما لم يشهد التاريخ له مثيلاً، لم يحدّ من الوعي الجاد والرؤية النافذة والبلوغ إلى عمق الإسلام وإدراك رسالة محمد الحقيقية، عند أولئك الذين صمدوا أمام كل وسائل القمع والقهر والجوع والموت أمثال أبي ذر وعبد الله بن مسعود... وأنه، بالتالي، لن يعطي «العرش الجديد» الاستقرار والطمأنينة والسيطرة المطلقة على البلاد الإسلامية من دمشق إلى خراسان، ولم يكن ليجعل مراكز السلطة في مأمن من الخطر، لتستلقي من ثم على مسائد الحكم والقدرة منعمة خالية البال.

بل كان هذا التيار الجاهلي يعلم أن مصادرة إرث الإسلام

بالسيف والمال والسوط والتركيع، قد حقق هدوءاً على جميع الجبهات الثورية الإسلامية، لكنه في حقيقته هو هذا الهدوء المريب الذي يضم في أعماقه شرارة لن تلبث أن تشتعل وتلتهب وتمتد وتصنع الانفجار. لقد هزمت هذه الجاهلية جيش الإسلام، لكن الإسلام بقي موجوداً في معاقله داخل الأفئدة والقلوب والعقول، ومتاريس الحرية الإنسانية كلها قُوّضت، وقلاع الحق والحقيقة استسلمت، لكن طلاب العدالة ورواد الحرية ما زالوا هنا وهناك على امتداد الوطن الإسلامي.

لقد استشهد علي في محرابه.. لكن من يطفيء ناره؟

وصمت أبو ذر مبعداً إلى الربذة.. لكن من يخنق صوته؟

وقّع الحسن وثيقة الصلح.. لكن من سيسكت عن الضيم؟

وأُعدم حجر في مرج عذراء.. لكن من يلغي قيم ثورته وقناعاته؟

لم تكن منافذ الخطة الحقيقية في المدينة، وقد أباحوها ثلاثة أيام وأبادوا أهلها!

ولا في الكعبة، وقد أحرقوها وأمطروها بالحجارة!

ولا في الكوفة، وقد أشعلوا فيها نيران الفتنة!

ولا في مسجد رسول الله، وقد استباحوا حرمته!

ولا في بيت فاطمة، وقد أحرقوه بالنار!

ولا في القرآن، وقد رموه بالسهام!

أين كان الخطر إذن؟ وأين مصدر النار ومنافذ الثورة؟

إنها هنا. . في العقول والقلوب!! وفي هذه العقول والقلوب، في داخل هذين البيتين، تقيم كل القلاع التي سقطت ويتغلغل حراس الحقّ والعدل والحرية، ويضيء مشعل الإسلام بأنواره المتوهجة.

هذه العقول والقلوب إذا لم تخرب، فإن علياً وأتباعه لم يموتوا وقواعد السلطة لن تستقر. ومن جديد سيولد أبو ذر وعمار وحجر ومالك وسيصنعون جيوشاً تذهب إلى صفين. وهذه العقول والقلوب إذا لم تُهدم ويدخلها الفساد، فالحسن الجديد لن يصالح، والثورة في الكوفة ستُعاود الإندلاع، وستذهب هدراً كل وسائل القمع، كل إغراءات المال، كل جرائم السيف، كل مقابر الموت الجماعية، كل ألوان النفي والحرمان والتشريد، وقواعد السلطة، تبعاً لذلك، لن تستقر.

إن بيان الثورة الإسلامية ليس في القرآن فحسب، إنه هنا. . . في العقول والقلوب!

وعلي بن أبي طالب ليس في مسجد الكوفة. . إنه هنا. . في العقول والقلوب!

كل القلاع، كل الثوار، كل المطاردين والمقتولين والمشردين، كل طلاب الحرية والكرامة الإنسانية. . هنا. . في

العقول والقلوب!!

القلوب والعقول هي مصادر الخطر والاشتعال المرعب!

وبنو أمية سادة في الدهاء، وسادة في الوثنية، وسادة في الخديعة والنفاق، وهم الآن في هذه المرحلة التاريخية التي نتحدث عنها، لم يكن ليفصلهم عن الجاهلية الأولى إلاّ جيل واحد، ففي هذه الجاهلية رفعوا راية الوثنية، وتجارة الرق، وطغيان الرأسمالية القرشية، وهاجموا الإسلام في معاركه الشهيرة: بدر وأحد والخندق.

وتيارهم الجديد الذي أطلقوه لا يفصله عن ثورة الإسلام الفكرية والاجتماعية والسياسية والروحية إلاّ جيل واحد. وهم على معرفة جيدة بالناس وبأنفسهم وبروح هذا العصر الذي يعيشون. إذن، فليكن للمعركة ضد الإسلام سلاحها الجديد وقادتها الجدد ووسائلها الجديدة وسياستها الجديدة المتقنة. إن الأسلحة التقليدية مثل الدرهم والدينار، وإمارات العراق والري، ودهاء ابن العاص، وسيف بسر بن ارطأة، وبطش الحجاج وغيرهم... ستكون في الحرب الجديدة بلا فاعلية!

إن الحرب الجديدة ستتخذ من القرآن سلاحاً، ومن السّنة متراساً، ومن الإيمان أداة، ومن الفكر قاعدة، ومن الإسلام راية، ومن هذه العقول والقلوب ساحة للمعركة لأنها في الاستراتيجية الجديدة هي الهدف والغاية. وضد هذه العقول والقلوب وما يشتعل فيها من ضوء للإسلام وثورته الأصيلة، سيجهز من

المفسرين والمحدثين والقراء والمتكلمين والفقهاء والحكماء والقضاة. . جيش، وسيكون رجال الدين وأصحاب الفتاوى والصحابة قادة لهذا الجيش!!

. . وقد انطلقت الحملة وسار جيش الدين في طريق عبّدها جيش الدنيا وأزال من أمامها الحواجز، سار بهدوء وروية وتوفيق ليقضي شيئاً فشيئاً على منافذ الخطر ومصادر الاشتعال داخل العقول والقلوب دون مقاومة تذكر. لقد استخدم هذا الجيش تلك الوسائل الخبيثة المدمرة التي يعرفها الرسميون من رجال الدين ويتوارثونها على امتداد التاريخ، تلك الوسائل التي تصنع من موسى قاهر فرعون، وخاسف الأرض بقارون، ومدمر بلعام، ومخلص الشعب، يهودياً أقسى من فرعون وأشره من قارون وأكثر نفاقاً من بلعام، كما تحوّل مسيح الحب والسلام إلى قيصر مشوه دجال. إنها وسائل رجل الدين المشترى، رجل الدين المرتبط المباع!!

لقد بدأ إذن عصر التغيير! . .

وها هو الإسلام يفقد ملامحه الأصيلة!

وها نحن نشهد موت القيم، وتقويض روح الثورة ومسارها، وأخيراً التضحية بالشعب باسم الدين!!

وللمرة الأولى صار الإسلام وسيلة للسلطة، مبرراً لكل أعمالها، وعلى يد من؟! على يد رجال الدين أنفسهم!!

بدعة التيارات الفكرية

وكان من نتائج الحملة الجاهلية الجديدة، تحت القيادة الأموية، أن نشأ تياران باسم الله واسم الدين تناميا وانتشرا كالسرطان في روح الأمة.

وكان التيار الأول هو تيار «المرجئة» ودعاته كانوا في «الظاهر» من علماء ومتكلمي الإسلام، رجال دين وأئمة مساجد، ليسوا طلاب جاه ومال، ولم يشركوا بدم أحد، بل أقبلوا على تدارس العلم منصرفين إلى هموم العقيدة.

المرجئة

فما هي هذه العقيدة؟

ما هي «المرجئة» وماذا تقول؟

كان فحوى هذه العقيدة أن كل شرير أو خيّر، أو كل آثم أو مجرم بالغاً ما بلغت جريمته، عليه أن يرجو مغفرة الله وينتظر رحمته، فقد قال الله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ...﴾[١].

فالتسمية إذن مشتقة من «الأرجاء». ولما كان كل مجرم ينتظر من الله هذه الرحمة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

«وهو الغفور الرحيم».

فيتحتم على كل الناس أن لا يشجبوا عمل هذا الظالم أو إثم ذاك المجرم.

أما إذا كانت هناك فئة ظالمة مستبدة، وأخرى مظلومة تعمل لصالح الناس، فلا يجوز القول أن هناك ظالم ومظلوم، فمثل هذا القول شرك بالله وادعاء بالألوهية وتدخّل في مشيئة الله، لأن الله هو الحاكم.. فهل يريد الإنسان أن يشارك الله في حكمه الذي أرجأه إلى يوم الحساب حيث تقام موازين العدل؟ وهل يصحّ «للعبد» أن ينصب على الأرض موازين العدل، إلاّ إذا كان إلهاً أو شريكاً للإله في الحساب والثواب والعقاب؟

إذن، علينا ـ نحن الشعب ـ نتيجة لهذا الاجتهاد أن نصبر، أن لا نقاوم الظلم، أن لا نحاكم الظالمين، أن لا تتحيز الفئة المظلومة ضد الفئة الظالمة، وأن نترك ذلك لله، فلا نتدخل بينه وبين عباده. وفي المفهوم السياسي: أن نترك لبني أمية حرية التسلط والحكم والسيادة، مهما بغوا وطغوا وتجبروا، فلا نعلن الثورة ولا ندعو إلى الحق ولا نرفع راية العدل، بل نترك أمر هذا الجبروت الأموي وطغيانه إلى الله في يوم الحساب!! وهذا هو بالضبط ما كان ينشده بنو أمية من وراء الفكر المرجئي.

وقد انتشر وباء «المرجئة» بين صفوف الجيل الثاني من المسلمين، ممن لم يتسلحوا بالمعرفة الحقيقية لمبادىء المدرسة الإسلامية، ولم يتلقوا تعاليمهم من محمد وعلي ومن المهاجرين

والأنصار الأوائل، لكنهم تلقوا هذه التعاليم من هؤلاء الدعاة المأجورين، فكان أن شُلّت رؤيتهم الدينية بواسطة ذلك الفكر الذي روّجت له السلطة لتنسف به مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان واجباً على كل مسلم.

وكان من نتائج هذا الفكر الإحباطي أن تميعت عقيدة الناس وتحللت حتى وسعت الله والشيطان في وقت واحد!!

المجبرة

أما الوباء الثاني فهو مذهب «المجبرة» الذي نشأ وانتشر في نفس الفترة، فكأنّ ثاني مدرسة أخذت شكل فلسفة إلهية بعد المرجئة التي اتخذت من القرآن وسيلة لصد الناس عن الجهاد وشل الأفكار والعقول المناهضة للحكم الأموي.

فما هي «المجبرة» وما هي هذه المدرسة التي تبطن خبثاً وتظهر قدسية؟

لقد اعتمدت هذه المدرسة مبدأ الجبر الإلهي الذي يستمد من القرآن أسسه وأدلته وهو: إن الله الحاكم المطلق للعالم، وإن كل ما يحدث فيه هو طبق إرادته ومقتضى مشيئته، وإن كل من يعمل عملاً سواء كان صالحاً أو شريراً فهو مظهر من مشيئة الله، والإنسان خيراً كان أم مجرماً، بريئاً أم مذنباً، ضحية أو جلاداً، عبداً محروم السيادة أو سيداً يمتلك السيطرة، كان ذلك أيضاً من الله. فالله وحده يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء. هو يحيي

وهو يميت، هو يعز وهو يذل، وليس لأحد اختيار! وقد كانت هذه الصيغة الخادعة لمذهب «المجبرة» مقبولة على أخلاقها لدى المتزمتين من متديني تلك الفترة، فواصلت انتشارها في صفوفهم متسلحة بمجموعة كبيرة من الأحاديث الموضوعة، التي كانت تنتجها باستمرار معامل بعض الصحابة، والتي وصل عددها إلى أربعمائة ألف حديث؟!

وفي المفهوم السياسي كذلك كان هذا المذهب، من خلال إطاره الديني، دعماً لبني أمية وللسيادة الأموية، وبالتالي، أصبحت إرادة بني أمية إرادة الله، فإذا اعتدوا على حقوق الأمة فإن الله يريد ذلك، وإذا هُزم علي فإن الله أراد هزيمته، وإذا حكم بنو أمية فإن الله أراد لهم الحكم، وإذا كان هناك طالح وصالح ثم تحكم الطالح بالصالح، فإن في ذلك مصلحة لا يعلمها إلاّ الله، ووفق حكمته التي لا ندرك كنهها ولا تقع في دائرة اختيارنا. . .

وعليه، فإن أي اعتراض على تسلط أو ظلم أو بطش أو استبداد، هو اعتراض على المشيئة الإلهية وخوض في الحكمة الربانية، وعلى بني أمية أن ينعموا بعطايا هذه المشيئة دون اعتراض!!

انتهى كل شيء

ماذا كان من نتائج الحملة الجاهلية الأموية الجديدة هذه؟

لقد انتهى كل شيء!!

معطيات الثورة التي انطلقت قبل نصف قرن صودرت مرة واحدة.

الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ رُفع على حراب بني أمية.

الفكر العقائدي الذي جاء به الإسلام ليبني به العقول والقلوب، خضع لتوجيه السلطة الأموية.

المساجد أصبحت قواعداً للشرك والخداع والتجهيل.

سيوف الجهاد انتقلت إلى الجلاوزة والجلادين.

الصدقات والغنائم صُبت في «قصر الخضراء»

الألسنة التي تنطق بحقائق التوحيد والسنّة والقرآن والوحي أصبحت في قبضة معاوية ونظامه.

أئمة المساجد، والقضاة، وقراء العصر ومتكلموه، قُتلوا أو اعتزلوا أو أصبحوا أبواقاً للسلطة الأموية الحاكمة.

الثوريون ماتوا في صحراء الربذة وفي مرج عذراء، وجيل الثورة الثاني تعرض للإبادة الجماعية. بينما سيطرت على الآخرين مباديء المرجئة والمجبرة، فأقعدتهم عن التحرك وأفقدتهم القدرة على النضال وزرعت فيهم بذور الاستسلام. فلا فائدة من السعي والتغيير لأن كل محاولة للمحافظة على المباديء الحقيقية للإسلام باءت، وستبوء إن عاودت الكرّة، بالفشل..

وها هي القبضة الحديدية للسلطة الأموية تضع العقائد،

والأفكار، والقيم، باسم الدين وتغسل بها الأدمغة لتحشوها من جديد بمباديء الردة.

أما رسالة محمد ﷺ فلم يكن لها ناطق ولا منبر أو محراب، وعلى امتداد الوطن الإسلامي الكبير لم تكن ثمة بقعة واحدة مرتبطة بأسرة الرسول نفسه، وموالية لأنصار الثورة الحقيقيين، وكل عذابات المهاجرين والأنصار وفتوحاتهم ذهبت أدراج الرياح واحتوى قصر معاوية الكنز الذي حملته الريح!

معنى الشهادة

في مثل هذه الظروف والأوضاع، في إطار سنة ستين للهجرة، خرج الحسين بن عبد الله ليواجه قدره الذي كان من قدر هذه الأمة.

خرج الحسين والظرف الرهيب العصيب الذي تعيشه الأمة الإسلامية تنتظر الرجل التاريخي ليقوم بالدور التاريخي ويكون البطل التاريخي.

وكان الحسين: الرجل والدور والبطل.

كان الموقف والقضية والشهادة وكربلاء.

كان الوريث الأعظم للجد الأعظم والأب الأكرم الذي أسس مدرسة الشهداء.

لكن الحسين في سنة ستين للهجرة خرج أعزلاً من كل سلاح ليواجه سلطة قوية مستبدة غاشمة، كانت أسلحتها متعددة ووفيرة: الأفكار، الدين، ثم المال والسيف والدعاية ووراثة النبي!

هذا الشهيد العظيم ابن أكرم الشهداء وأبو الشهداء، ماذا كان عليه أن يفعل، وماذا كان في مقدوره أن يفعل، وما هي «القوة» التي كان يمتلكها لمواجهة السلطة الأموية القوية؟!

كان الحسين لا يملك، إذا استثنينا الحق والحرية والعدل، سوى القدرة على الانزواء للعبادة، وباعتباره ابناً لعلي وفاطمة وسبطاً للرسول، فإن مكانه من الجنة مضمون!!

لكن الحسين لم يكن من طينة «هؤلاء المؤمنين»، ولم يكن ليختار العبادة طريقاً إلى الجنة بديلاً عن الجهاد. كان الحسين يدرك أن الطريق إلى الله هو طريق الحق، وطريق الحق هو الجهاد والالتزام بالنضال وبمبادىء الثورة الإسلامية وتعاليمها. ولما كانت مبادىء هذه الثورة وتعاليمها قد سحقتها عجلة الوثنية الأموية... فهل يرضى الحسين بأن يتخلى عن وعيه النضالي الثوري ويلجأ إلى زوايا المعابد تاركاً للجاهلية الجديدة أمر الاستفحال والبطش بقيم الحق والعدل والحرية تلك التي كانت أسس الثورة الإسلامية الأولى؟

لا!! لم يكن ذلك من طبيعة الحسين.

قدره أنه شهيد، فلتكن الشهادة هي الدرب، ولتكن القيم التي ناضل من أجلها جده وأخوه وأبوه وكل الأحرار هي المثل والقدوة والمصابيح..؟

لم يكن أمامه إذن إلا الثورة.

بدون الثورة لا يكون الحسين سبطا للرسول وابناً لعلي وممثلاً لقيم الإسلام. . ؟

وهو فكر، وكان عليه أن يختار بين أمرين: إما الثورة، والثورة تتطلّب «قوة» وهو ليس يملكها، وإما اللجوء إلى النضال الفكري باستخدام العلم سلاحاً.

والحسين لن يقاوم بالفكر وحده فهو أمر لا يختاره.

وقد يذهب بعضهم إلى القول أن الحسين، وقد وجد القوة الأموية الطاغية في حين أنه أعزل، كان عليه أن يختار الصراع الفكري معتمداً مبدأ التروي وبعد النظر كما فعل من بعد الإمام الصادق.

ونذهب نحن في الرد ـ وسيكون لنا لاحقاً أكثر من رد في معرض مناقشة الموقف الحسيني ـ إلى أن اختلاف ظروف عصري الإمامين هو الذي أوجب على الحسين الجهاد وعلى الصادق التروّي. كان الإمام الصادق يعيش في الجيل السادس للإسلام (١٢٠ـ١٣٠ هجرية) وكانت دولة بني أمية في هذا الوقت آخذة في التدهور، وبدأ يبرز وضع سياسي جديد هو دولة بني العباس. ومن جهة أخرى كانت فلسفة اليونان قد أخذت تشغل عقول المفكرين من المسلمين، كما أن روح التصوف الآتية من الهند وفارس أخذت تجذب أفئدة المثقفين والمتعلمين، فانصرفوا عن السياسة التي كانت تدور أحاديثها ومواضيع النقاش فيها حول الحق والباطل، ومحاور الإمامة، وهزيمة علي، واغتصاب الخلافة،

وانتصار معاوية، ولمن ينبغي أن تكون مواقع القيادة. .

نقول انتقل الحديث كله في ذلك إلى مواقع فكرية جديدة تدور حول: المادة التي خلق الله منها الكون، والهيولى، والماهية، ومدن الحب السبع، واستنباط الأفكار الفلسفية والعرفانية المتكلفة من القرآن، وتتبع أسرار الخليقة بتأويل بعض الآيات غير القابلة للتأويل والقيمة للنتائج التي ينتهون إليها. ثم بدأت تغزو مجالس المفكرين قضايا: العرض والجوهر، والحب، والمنزل الأول، والمنزل الثاني، والجذبة الإلهية والخطفة، إلى غير ذلك من شؤون الفكر والفلسفة. .

وقد حل ذلك كله محل الحديث عن المسؤولية، والشعب، والعدالة، والحق والإمامة، مضافاً إليه وجود «جهاز للسلطة» كان دائب الجهد على اصطناع وإطلاق تيارات ومذاهب وايديولوجيات للفقه والتفسير والمعارف الإلهية، لتنتهي الغاية من كل ذلك إلى أن يصبح الإسلام دفعة واحدة، قاعدة من قواعد السلطة ووسيلة من وسائل تبرير وتكريس الأوضاع القائمة!

وفي عصر كهذا العصر يكون النضال الفكري ضد هذه التيارات ضرورة لمن لا يمتلك سلاح الثورة والتغيير.

وهو ما فعله الإمام الصادق بالضبط، مع أنه القائل: لو وجدت أنصاراً بعدد أصابع اليدين لقمت بالأمر!!

عصر الحسين كان مختلفاً!. .

لم يكن عصراً للتيارات الفكرية المستجدة والوافدة، ولم يكن الصراع فيه يدور في ميادين الفلسفة والفقه واللغة والتصوف والتفسير، ولم تكن هذه التيارات قد تسربت إلى العالم الإسلامي وسممت الفكر الإسلامي الصافي وشوهت واقع الإسلام . . .

بكلمة لم تكن هذه الأخطار الفكرية قد استفحلت!!

فالإسلام في عصر الحسين كان ما يزال محتفظاً بعناصر قوته وصفائه قريباً من الفطرة، لم تمس يد التخريب متونه وأصوله، وكانت الأفكار لم تزل خالية من مسائل علم الكلام المعقدة وسائر العلوم التي تمسخ صورة الإسلام. وعندما كان يجلس الحسين في مسجد دمشق ليدرس الفقه والتفسير والمعارف الإلهية، والتوحيد، والسيرة النبوية، كان معاوية يعتبر ذلك فتحاً ويذهب في تشجيع الحسين كل مذهب: فليجلس ابن علي في المسجد وليدرس ما يطيب له من الدروس وستكون نفقاته مؤمنة شرط: أن لا يتعاطى السياسة فإنها لا تناسب مقام الإمامة!!

هل كانت ثورة الحسين ثورة سياسية؟

وهل السياسة لا تناسب مقام الإمامة؟

ونحن سنذهب في الرد، كما أشرنا سابقاً، لمناقشة هذا الموضوع. ففي بعض الكتب التي صدرت مؤخراً، وهو كتاب اتسم بالمنهجية العلمية والشمول وسعة الأفق والجدية والاستقلال الفكري، طرح المؤلف، للأسف، تفسيراً لحركة الحسين يشاركه

فيه الكثيرون إذ قال: «إن الحسين تحرك من المدينة بدافع اجتماعي ورؤية سياسية منظمة تستهدف الإطاحة بسلطة غاشمة، ومن ثم الوصول إلى الحكم من أجل إعطاء كل ذي حق حقه». ومع تقديري لمنهجية المؤلف العلمية واعتبار كتابه هذا عملاً له أهمية استثنائية، في وسط تهيمن عليه التقليدية والسطحية والغوغائية، فإني أختلف معه من ناحية علمية، ومن المؤسف أن يكون هذا الاختلاف أساسياً وهاماً[١]. فمثل هذا التفسير الذي ذهب إليه لا تنهض به الوقائع التي صاحبت حركة الحسين ولا تنسجم معه.

وقد يرد بعضهم على ذلك بالقول: «وهل كان الحسين سياسياً ليتحرك من أجل الوصول إلى الحكم؟! وتلك دعوى غريبة. فلماذا إذن يقاتل محمد وعلي؟ ولماذا يقاتل الحسن بن علي؟ ولماذا ينهض أخيراً الحسين بن علي إلى القتال؟ إن المسألة لم تكن لعبة سياسية، والنهوض إلى الثورة والقتال والجهاد ليس نهوضاً سياسياً وحسب، إنما هناك جرائم تُرتكب في حق الأمة وتُهدد مصيرها، والمسؤول عن صيانة الأمة ومصيرها عليه أن يناضل من أجل الوصول إلى الحكم لإحقاق الحق وإزالة الحيف اللاحق بهذه الأمة. وذلك من حق الإمام بل وظيفته الأساسية.

---

(١) لا بد من الإشارة إلى أن اختلافي مع المؤلف لا ينضم إلى تلك الحملات التقليدية التي تذهب إلى إفراغ حركة الإمام الحسين من مضامينها السياسية، ومن أن الرسول وعلياً كانا يمارسان الحكم السياسي لمجرد الرياضة الروحية، وأن مهمتهما كانت دينية لا سياسية. ومثل هذا التقييم متأت على ضوء الأفكار الجديدة التي تفصل بين الدين والسياسة (المؤلف).

فمن الطبيعي إذن أن يقوم بثورة سياسية مسلحة تطيح بالنظام الجاهلي الغاشم وتستلم أزمّة الحكم وتعيد الحق إلى نصابه.

على أنني أقول: «إن ذلك هو من صميم رسالة الحسين. لكنه موقف من الناحية الواقعية لم يكن عملياً في ذلك العام» فإذا رد بعضهم: بل كان ذلك ممكناً بدليل أن الكوفة كانت قاعدة قوية لأنصاره الذين يوالون أهل البيت وعلياً وأبناءه، أجبت: بأن ذلك صحيح ومسلّم به، بل ذهبت إلى أن هذا الولاء لا يقتصر على الكوفة وحدها بل يتعداها إلى فارس حيث يكثر أنصار علي وبنيه، والتي تشكل قاعدة تستند إليها الكوفة. وثم لنفترض أن الكوفة دعمت الحسين وألقت ثقلها إلى جانبه بشكل مطلق، ولم تنكث البيعة التي أخذها مسلم للحسين، وبالتالي كانت من القوة بحيث لو دخلها الحسين لاستطاع أن يجعل منها أقوى قاعدة إسلامية، وأن يقيم فيها حكومته الحرة ويقضي على حكومة الأمويين. حتى لو افترضنا ذلك، وقبلناه، فإن حركة الحسين تبقى حركة غير سياسية مسلحة لا بمنظور الفئة التي تدّعي أن السياسة والثورة السياسية تغض من مقام الإمام، ولا بمنظور الفئة التي تقول: بل إنها وظيفة الإمام!

وأقول مرة أخرى أن ذلك ليس ممكناً وليس عملياً. وإن الذين يقولون: وكيف لا يكون ممكناً وهو لو دخل الكوفة لكان قادراً على الإطاحة بسلطة الأمويين وبناء حكم إسلامي بقيادته؟! ولماذا لا يكون خروجه سياسياً منظماً يستهدف ذلك؟

لهؤلاء أقول، مستشهداً بالوقائع التاريخية، أن الحسين توجه من المدينة إلى الكوفة بعدما تناهت إليه دعوتها بأخذ المبادرة والتوجه إليها. وكان لهذه الدعوة طابع الإلحاح والتظلم، وطلب مناصرة هذا القائم المؤمل الذي يحمل لهم الخلاص من نير السلطة الغاشمة، وهم قد محضوه ثقتهم لتسلم القيادة والنصرة.

بدء حركة الإمام

وقبل أن يغادر الحسين المدينة أعلن أهدافه من هذا الخروج وهي: «السيرة بسيرة جده وأبيه» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ثم يطوي مسافة قدرها ستمائة كيلومتر بين مكة والمدينة بشكل علني هو وأهل بيته. وهو إذ يصل مكة يعلن على مسمع من جموع الحج المتوافدة من الربوع الإسلامية من أنه ماض إلى الموت: «**خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة**». فهل أن من ينوي القيام بثورة مسلحة يتحدث بهذه اللغة؟! لا وإنما يتحدث بلغة مختلفة ويتوجه إلى الناس قائلاً: «سنضرب، سنقتل، سننتصر ونبيد العدو». لكن الحسين كان يتوجه إلى الناس بقوله: إن الموت زينة للمرء كحلية الفتاة، ثم يغادر مكة إلى الموت!!

تأكيداً لما نحن بصدده: هل كان لسياسي واع يعيش في ظل السلطة الأموية القادرة، وتحت قبضة حكمها القوية، وفي قلب قواعدها، أن يأخذ الموقف التالي: ينتفض بلد (الكوفة) ضد السلطة المركزية فيوجه دعوته إلى الحسين طالباً منه النصرة والقيادة، ويلبي الحسين الدعوة مظهراً قبوله لقيادة تلك الانتفاضة،

ثم يعلن جهراً وبشكل رسمي أنه متوجه إلى البلد الثائر، ثم يصطحب نساءه وأطفاله وبني أخيه ورجاله تضمهم جميعاً قافلة ضخمة، تتحرك من بلد في قبضة العدو، قاطعة مئات الكيلومترات، إلى مكة، حيث تتواجد قوة كبرى لهذا العدو. ثم قادة قد اجتمعوا من سائر البلاد الإسلامية وكلهم يوالون حكومة الشام، ثم يعلن من مكة وأمام كل هؤلاء: أنه يريد الكوفة، ثم يتوجه من غرب الجزيرة، قاطعاً القطر الشرقي للدولة، إلى العراق قاصداً الكوفة مركز الثورة والانتفاضة؟!

هل كان لسياسي واع معارض، وقائد ثورة معادية، تتوفر له فرصة الخروج إلى أرض ثورته وميدانها حيث تنتظره القواعد الثورية التي سيقاتل من مواقعها، لكي يقضي على السلطة ويطيح بنظامها ويقوض أركانها، هل كان يخرج بهذا الشكل العلني السافر أم أنه يحيط أمره بالكتمان وهو الشيء البديهي؟

وهل كانت السلطة لتسمح له بالخروج والوصول إلى جنده ورجاله وقواعده وأسلحته، وتتركه يقطع الفيافي والصحاري علناً وتحت نظرها، فلا تقاتله أو تعتقله أو تبيده؟!

مثل هذا الرجل السياسي والقائد الثائر لا يفعل ذلك..

لكن الحسين، بالعكس تماماً، فعل ذلك!! لقد أعلن: «لن أبايع.. وسوف أغادر.. مهاجراً إلى الموت»!! قالها جهراً على مسمع من السلطة والناس، وخرج سافراً على مرأى من السلطة والناس. لم يتكتم. بل لم يختف. ولم ينتظر حلول الليل حتى

يسافر تحت جناحه الدامس، ثم يصل الكوفة فيفاجأ السلطة والناس أنه أصبح هنا. . . بين الثوار!!

من البديهي أن الحسين قد خرج ثائراً ضد السلطة، لكن الأسلوب الذي اختاره لهذا الخروج يدل على شيء آخر. وهذا الشيء لا هو فرار ولا هو انطواء ولا هو استسلام ولا هو ترك للعمل السياسي من أجل النضال الفكري والأخلاقي والتشريعي، كما أنه ليس ثورة سياسية مسلحة.

اذن. . ما هو هذا الشيء؟

إنه الحسين بصفته قائداً مسؤولاً!!

لماذا الحسين مسؤولاً وما هي موجبات قيادته؟

لماذا يثور، ولماذا يأخذ موقفه الحسيني الشهير هذا، طالما أنه ينطلق في تحفزه من غير المواقع التي أشار إليها الكثيرون زاعمين أنها مواقف سياسية غايتها الحكم؟

الحسين قائداً مسؤولاً

كنا تحدثنا، فيما سلف، عن الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري الذي كانت تتخبط فيه الأمة الإسلامية تحت القبضة الحديدية للسلطة الجاهلية الأموية، حين كان الزمن يدخل سنة ستين هجرية. وقد وقف الحسين ونظر إلى زمانه هذا، فماذا رأى؟!

رأى زمناً شُلَّت فيه العقول واشتُريت الرجال والضمائر، وقُطعت الألسن وخيطت الشفاه، وهُدمت قواعد الحقيقة على رؤوس أنصارها، واقتُلعت معطيات الثورة الإسلامية من جذورها، والقيم العظيمة التي جاء بها محمد ﷺ صُودرت أو تكاد، والأمة في طريق التدهور والاستسلام، ووسائل القوة والمخادعة هي السائدة المهيمنة الباسطة ظلال بطشها على الجميع، ولم يتبق من تراث جده وأبيه إلاّ ما انطوى داخل الصدور والقلوب خائفاً متردداً وجلا. ثم رأى زمناً، الأوفياء فيه بلا أنصار، والشبان إما يائسون أو منحرفون أو مباعون، أما الزهاد ففي الزوايا والخلوات، وأما السلف والأكابر فقد استشهدوا أو اشتُريت ضمائرهم أو انطووا على أنفسهم.

والحسين الآن بصفته قائداً مسؤولاً يواجه كل ذلك، وعلى عاتقه تقع أعباء القضاء على كل ذلك. وكان صمته يعني أن الإسلام سينتهي إلى أن يتحول ديناً رسمياً، إلى مجرد سلطة عسكرية وسياسية. فلا يعدو أن يكون كأية قوة حاكمة مرت في التاريخ، تبدأ بظاهرة ثم تنتهي إلى نظام ومجرد سلطة حاكمة، أي لا يلبث أن يكون كظواهر الإسكندر وجنكيزخان والسلوقيين والمغول، ثم ينتهي ويندثر باندثار هذه القوّة وانتهائها، ولا تبقى منه إلاّ ذكريات التاريخ!!

ثم تأمل وأمعن في التأمل، فوجد نفسه بين ضرورتين:

ـ عدم القدرة على الصمت: لأن كل شيء في طريقه إلى

التدهور، ولأن طمس الحقيقة واندثار حق الشعب مستمر بالقوة الغاصبة، كذلك نسف القيم ومحو معالم الثورة ورسالتها، ثم اشتداد هذه الهجمة الوثنية الشرسة الممثلة بالجوع والعبودية والسياط والقتل الجماعي والتعذيب والاغتيالات الغامضة والنفي، ثم بالتمييز الطبقي وشراء العقائد والضمائر، والتجهيل الديني، واحتواء الأموال، والفخر القبلي، والجاهلية المتجددة!!

ـ وعدم القدرة على الثورة: لأن المسؤولية تدعوه إلى الثورة ومقاومة هذه الخيانات المتواصلة للفكر وللقيم الإنسانية، وتدعوه إلى سحق الظلم والعدوان، في حين أنه غير قادر على ذلك لأنه وحده ومجرد من سلاحه، ولم يعد في ديار الإسلام قلعة واحدة من قلاع المقاومة والثورة، فكلها انتهت، وكلها انهارت، وكلها استسلمت وسحقت بالقتل والنفي والتشريد، وهو أخيراً وحده، أعزل بلا سلاح، وفي قبضة قوة حكم قادرة غاشمة، وحده أعزل في مواجهة إمبراطورية مدججة بالسلاح والخداع وأقنعة التقوى والإسلام المزيفة!!

والحسين وحيداً

ماذا يفعل الحسين؟

لا هو قادر على الصمت، لأن المسؤولية تدعوه، ولا هو قادر على رفع الصوت، لأن السلطة مستبدة قوية غاشمة.

لا هو قادر على المواجهة المسلحة والثورة العارمة لأن

المسؤولية تدعوه إلى ذلك. ولا هو قادر على الخنوع والاستسلام رغم وجود هذه السلطة المستبدة القوية الغاشمة.

مأساته أنه وحده!!

وحده في مواقع الحقيقة والوعي والعدل!

وحده والآخرون استسلموا أو استشهدوا أو انحرفوا!

وحده أمام قوى الظلم والطغيان والقيم المزيفة!

وحده وعليه أن يقاتل أفتك الجيوش.

ثم هو وحده، وعليه أن يرفع صوته عالياً وسط ضوضاء الترف والملذات والمتع، والجيوش المعبأة للفتح والغنيمة والإسلاب لا لنشر الرسالة ومباديء الدعوة الكريمة.

وحده وعليه أن يثور، لأن المسؤولية تنتظر وتلح في الانتظار لتعرف ما هو فاعل هذا الوحيد؟

مسؤول؟ ومن غير الحسين، ومعه ما في قلب وعقل الحسين من تراث، لا يكون مسؤولاً؟ إن الإنسان في مدرسة الإسلام مسؤول ولو كان وحده، مسؤول لو واجهته قوة غاشمة متحكمة في المصائر. ذلك أن المسؤولية يحددها الوعي والإيمان لا القوة والإمكان، فمن كان أكثر وعياً كان أكثر مسؤولية، ومن غير الحسين أكثر وعياً وأكثر التزاماً بقيم الإسلام وإدراكاً لتعاليم الإنسان؟!

إن الحسين يواجه الخيانة الكبرى للإسلام، يقوم بها دعاة الحرص على الإسلام من حفدة وأبناء الجاهلية التي حاربت جده ثم انقضّت على أبيه وأخيه، وها هي الآن تنقضّ على الإسلام كله تراثاً وقيماً وتعاليماً وعقيدة!

عليه إذن أن يقاتل لكنه في نفس الوقت غير قادر!

وهنا تبدأ المأساة: (الوجوب) و(عدم الإمكان) على أن (عدم الإمكان) سرعان ما يسقط، أما (الوجوب) فلا. ذلك أن المسؤولية اتجهت إلى انسانيته الواعية، إلى حسينيته لا إلى قدرته، فهو حسين رغم عجز وحدته ووحشة طريقه!

والآن وحسينيته تدعوه إلى إعلان الحرب ضد يزيدية يزيد وليس له سلاح، فهل الحرب إذن واجبة؟

أدعياء الوصاية على العقيدة والدين، نصحاء الشرع والعرف، أتباع الصلاح والمصلحة والمنطق، كلهم قالوا: لا، في حين كان الحسين يريد أن يقول للثورة (نعم). وهو لهذا غادر المدينة ودخل مكة، ثم غادرها ليعلن من مهد الأنصار ومن كعبة الرسول: رده الخاص (نعم) للثورة..

وخلاصة فلسفة ثورة الحسين مترجمة في «نعم» هذه!!

ما العمل؟

لقد كان سؤال «ما العمل؟» في تلك الفترة الحاسمة والعصيبة من التاريخ، والوضع على ما هو عليه من تحكم أسود بمصير

الإسلام، يطرح نفسه بشكل حاد على كل المفكرين والمؤمنين بالثورة، والأوفياء لمعاني الحرية والحقيقة والعدالة في الإسلام، يطرح نفسه على هؤلاء الذين رأووا وأحسوا وفهموا وتعذبوا وعرفوا معنى المسؤولية، لكنهم لم يعرفوا مخرجاً من هذا العذاب، وانما كانوا فقط يتساءلون: ما العمل؟

وقد أجاب كل على طريقته:

كانت «المجبرة» ترد على السؤال: «لا شيء». فكل ما حصل ويحصل إنما هو صادر عن مشيئة إلهية وحكمة بالغة:

«أعط الرضا

«واطلق غضون جبينك

«فلن يفتح لي ولك

«باب الاختيار»!!

وكانت «المجبرة» تقول: نعم، هناك ظلم واغتصاب، وإن ما يقال عن الإسلام والجهاد والزكاة والسنة والخلافة والفتح وتحويل بيوت النار والأوثان إلى مساجد، وزيادة نسخ القرآن، ونداء لا إله إلاّ الله، إنما هو كذب وادعاء ولم يعد هناك من قيم الإسلام إلاّ الأقنعة المزيفة. ولكن.. هل هناك من حيلة؟ لا.. فتلك مشيئة الله، لا تسقط ورقة إلاّ بإذنه، هكذا اقتضت حكمته، والاعتراض على قضائه فضول، والتساؤل مروق، وكل مسيّر لمصيره، وما يحدث فهو صادر عن قلم المشيئة الأزليّ، مسطور في كتاب مبين

خيراً كان أم شراً، هكذا انهزم علي وبقي وحيداً، وهكذا انتصر معاوية، فهو يعز من يشاء، ويذل من يشاء، يُؤتي الحكم من يشاء وينزعه ممن يشاء.

إذن، ماذا على الإنسان غير الصمت والصبر والرضا والتسليم؟ ماذا يصنع من كان في قبضة القدر؟ لا شيء! وفي فلسفة كهذه نرى مسألة القدرة وعدم القدرة على الجهاد غير مطروحة أساساً ودائرتها لا تشمل هذه المسألة، إنها تنفي المسؤولية حيث لا اختيار(١).

أما «المرجئة» فقد أجابت: نحن؟ ماذا يمكننا نحن أن نفعل؟ إن الله دعا جميع عباده إلى الجنة وفتح لهم باب الأمل، فكيف نميز نحن بين مغضوب وغير مغضوب عليه؟ فإذا حددنا أنه «مغضوب عليه» وخرجنا لنقاتله، أليس ذلك استباقاً للإله بل وتألهاً؟ إن ذلك «قيامة» قبل أن تقوم! و«حساب» قبل يوم الحساب! وهذا المرء إذا حكمت بأنه مجرم وأهدرت دمه فلم تتجاوز عن جرمه. . ماذا

---

(١) ليس من قبيل الصدفة أن نرى الستار يزاح مؤخراً عن «عمر الخيام» لا الخيام الشاعر والعالم والفيلسوف والرياضي النابغة، بل «الخيام» الشاعر العربيد برباعياته المعروفة، كما أنه ليس من قبيل الصدفة أن يعمد المستشرقون إلى كتب التراث الصوفي فيحققوها وينشروها من بين سبعين بالمائة من التراث الحضاري والفني والفكري والفلسفي الذي ما زالت مخطوطاته سجينة المخازن والمكتبات.

على أنه صحيح أن كل ما يحدث هو عن حكمة لا نعرف كنهها، وأن كل مصير يحدده التقدير و«الجبر» لكنها ليست حكمة الرب الذي في السماء وتقديره، إنما حكمة «الأرباب» الذين على الأرض! (المؤلف).

تصنع إذا غفر الله له غداً وبماذا تجيب؟ وأنت الذي تسأل: ما العمل؟ من هو القادر على الإجابة؟ لا أحد في مقدوره أن يجيب عما سوف يفعله الله! ما العمل؟ إن «الله أحكم الحاكمين» وهو «أرحم الراحمين» فلماذا «العمل؟» وقد أجاب العباد المتنسكون: «إن الطرق إلى الله بعدد نفوس الخلائق» وليس الجهاد وحده هو الطريق. . فماذا يعني إذن أن نخرج إلى الجهاد طلباً للجنة؟

أليس ممكناً الوصول إلى الله بغير الجهاد؟ هناك واجبات أخرى، هل أديتها؟ هناك الصلاة وشروطها وآدابها، هل تعلمتها وعملت بها؟ ثم إن الطهارات والنجاسات وآدابها هي مقدمة للصلاة، ومقدمة الواجب واجبة، هل تعلمتها؟ وهل تؤدي جميع وظائفها الشرعية؟ إن الصلاة هي عمود الدين، أما الجهاد فهو نوع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!!

ثم إنك أنت الذي تحمل راية الإصلاح وهداية الناس والمجتمع، هل أصلحت نفسك أولاً؟ هل أمنت آفات النفس البشرية وأمراضها، كالأنانية ورغبات النفس وأهوائها؟ هل أن كل ما تعمله هو خالص لمحض رضاء الله؟ هل بلغت من قوة النفس بحيث تأمن الانحراف؟ هل صرت تقياً؟ صالحاً لكي تصلح المجتمع؟

أيها المتسائل: ما العمل؟ هناك للجنة ثمانية أبواب، فهل يجب عليك أن تدخل من باب الجهاد؟ إن «الجهاد» مفتاح واحد من مفاتيح الجنة، ثم إن الأوراد، والأذكار، والأدعية هي أيضاً من

«مفاتيح الجنان» وسوف تسلم إليك من دون تعب، وأخيراً كل الأعمال الصالحة: إطعام المسكين، صلة الرحم، زيارة مراقد الصالحين، العبادة، النذور، مساعدة الجار، الوقف، التغذية، التوسل والشفاعة، كلها توصلك إلى نفس الهدف الذي يصل إليه الآخرون عن طريق «الجهاد». بل إن بعض الأوراد والأدعية لها ثواب سبعين شهيداً من شهداء بدر!

وأخيراً، فإن أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليا، وطلحة، والزبير، ومعاوية، ويزيد، كلهم «صحابي» و«مجتهد» و«فقيه» يعمل حسب استنباطه واجتهاده، واختلاف علماء الأمة والمجتهدين هو مجرد جدل نظري وليس هو اختلافاً على الكفر والإيمان، والظالم والمظلوم، والعدو والصديق!!..

لقد اتضح، إذن، الجواب على: ما هو العمل؟!

ومن جهة أخرى ـ وما زلنا نورد منطقهم في الجواب على: ما العمل؟ ـ فإن رجل التُّقى والصلاح عليه أن يتجنب فتنة السياسة وإغراء الحكم، فهما انحراف عن الدين، وشراء للدنيا بالدين، والركض وراء وخلف الدنيا وأطماعها هو مما يخالف كمال النفس والأخلاق والتقوى، وما بينهما هو تناقض شديد، ألم يقل الرسول عقب رجوعه من أحد حروبه: «رجعتم من الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر» قيل: «وما الجهاد الأكبر؟» قال: «جهاد النفس»، فعلينا إذن أن نترك مثل هذه «الجهادات» الصغيرة لكي نتوجه إلى «الجهاد الأكبر»!!

الآن، صار الجواب أكثر وضوحاً: علينا أن نعلن الجهاد الأكبر مع «النفس» لا مع «العدو»!!

علي وسياسته

ثم لا يقف هؤلاء عند هذا الحد. إنهم في نهاية المطاف دعاة رفض للثورة ودعم للتخاذل وتبرير للاستسلام!!

إنهم يلجأون إلى وسائل فكرية جديدة يدحضون بها منطق الحسين والمبادىء التي تقوم عليها ثورته، فيذهبون إلى أن تعاليم علي ومدرسته التي ينطلق منها الحسين، قد تجاوزها الزمن، والزمن الآن زمن مرونة وانفتاح وتقدم، لا زمن زهد وشدة وتقشف. وهذا هو منطق الصحابة، والشخصيات البارزة، والفقهاء، ورجال الدين الرسميين يومئذ.

إنهم يقولون:

إن سياسة علي وتفكيره المتسم بالشدة لم يكونا عمليين، وكان مثالياً في زمن تطلب أن يكون واقعياً. لقد كان عليّ على رأس أكبر دولة في العالم ومع ذلك كان يخصف نعله بيديه!! في وقت انفتحت فيه عيون الناس على أبهة الفرس وغطرسة الروم، ورأوا مظاهر الهيبة والجلال في تلك القصور الفخمة، في حين كان بيت علي، الحقير، يمثل سلوكاً غير مقبول ولا يليق بمظاهر الدولة الإسلامية!!

وحين يضرب علي الامتيازات المالية، وأمامه مجتمع الفرس

والروم الطبقي، ثم يوزعها بالسوية، فيجعل عطاء عثمان بن حنيف - وهو شخصية إسلامية كبيرة ومن القادة المقربين في حكومة علي - كعطاء غلامه الذي أعتقه قبل يومين، وهو ثلاثة دنانير، فإنه يمارس نظاماً مالياً مثالياً وغير عملي في دولة كانت فارس المنعمة المترفة هي إحدى أقاليمها، وامتيازات الكبار فيها أحداثاً أسطورية!!

ثم إن علياً - يتابعون - لم يكن اجتماعياً بحيث يقدّر قيم المجتمع السائدة آنذاك، فقد كان يغضب الجميع بسياسته المتشددة تلك، فلم يدار أحداً ولم يضع في اعتباره، وهو يحكم ويقول ويتصرف، مراعاة الأشراف ورؤساء القبائل ونفوذ الأسر الأصيلة ومواقف القوى المضادة، فليس علينا أن نعتبر النبوة شيئاً واحداً، ولا يقاس النبي وعلي بمعاوية ويزيد، بل ينبغي قياسهما بكسرى وقيصر!!

ويخطيء أبو ذر عندما يصل إلى دمشق فيأخذ على معاوية أكل «لباب القمح المنخول» وامتلاكه حلتين: واحدة لليل وأخرى للنهار. فإن أبا ذر يتصور أنه ما زال في المدينة، على عهد رسول الله، وأن هؤلاء الناس من رعايا الفرس والروم، الذين دخلوا الإسلام، هم مهاجرون وأنصار!!

فلا بد إذن من النظر إلى الأمور بمقياس نسبي، لأن التمسك بموازين الحق المطلق هي نظرة مثالية، وليس علينا أن نطالب هؤلاء الناس الذين ورثوا امبراطورية الروم والفرس أن يعيشوا الحياة التي عاشها رسول الله، أو أن يتقبلوا نهج علي وسيرته!

لقد تغيرت حياة الإنسان العربي وبدأ هذا التغير يطرأ بشكل ملحوظ على جميع مرافق حياته. وبدأ المجتمع يطمح إلى الترف والتأثر بمظاهر المجتمع الجديد. وشمل هذا التغيير: الآداب، والأنظمة الاقتصادية، والذوق، والفن، والأدب، وأسباب الرفاه، وأخذ هذا المجتمع بالأخلاقيات الفارسية والرومانية. فلا مانع من أن تتكون داخل هذا المجتمع طبقة كتلك الطبقات التي تستمد قوتها من الأنظمة القيصرية والكسروية، وأن يكون لرجال الدين سلسلة الأنظمة والمظاهر التي تستمد شكلها الطبقي من ارتباطها بالحكم، كما كان الحال بالنسبة للقساوسة والموبذانات.

لقد تأثر هذا المجتمع البسيط، ولعبت العوامل وخيرات الأرض وغنائم الفتوح دورها، فأصمّت الآذان عن صوت علي بن أبي طالب وما يدعو إليه من القيم، ولم يعد في هموم الشعب أن يتساءل عن الحق والباطل أو عما جرى بين علي وعمر، وعثمان وأبي ذر، وفاطمة وأبي بكر، أو ما إذا كان الحق في جانب آل بيت رسول الله أم في جانب آل أبي سفيان. وأمثال هؤلاء الناس، ممن نرى، هم عبيد المال والقوة، فإذا تمرد بعضهم أو خرج أحدهم على هذه القيم السائدة، فالسيف!!

ألم تر ما جرى لعلي وفاطمة في مدينة أبيها وبمنظر من المهاجرين والأنصار؟ فهل كان بنو أمية في المدينة أو في السقيفة، وهل كان أحد منهم في الشورى؟

وهل رأيت ما جرى للحسن بن علي؟ كيف سلمه أنصاره

وقادة جنده وساوموا على أنفسهم، فباعوا دينهم وضمائرهم وسابقتهم وجنودهم، صفقة واحدة في ساحات القتال؟

أرأيت الخوارج، وهم أعداء بني أمية الألداء، الذين نهضوا من بين الطبقات المعدومة، وعرفوا بتعصبهم وخشونتهم ورياضاتهم النفسية، كيف أصبحوا من حيث لا يعلمون لعبة بين يدي معاوية، فشهروا سيوفهم على علي وخذلوه في ساحة القتال ثم كفروه وفسقوه؟

معاوية لهؤلاء الناس

إن كل هذه الوقائع تجيب على سؤال: ما العمل؟! فلا عمل مع أمثال هؤلاء الناس. إن معاوية هو الرجل المناسب لهم وليس علياً. ومعاوية على أخطائه وسيرته المعروفة، أكثر واقعية من علي وأعمق تفكيراً، ففي حين أن علياً يريد الإبقاء على الناس في أجواء الحياة البسيطة ـ وهو أمر غير ممكن ـ كان معاوية يسير بالمجتمع حثيثاً نحو الحرية والتقدم والانفتاح، وهو إذا بنى مسيرته هذه على الظلم والفساد والتمييز، فعذره أنه يسعى بخطى واسعة لبناء مجتمع جديد ونظام جديد على أسس مستمدة من أنظمة الأمم المتمدنة كالفرس والرومان.

ثم إن معاوية في سنوات حكمه العشرين، وهو حكم مطلق، قمع كل الخلافات والفتن والتحركات الداخلية ومسببي الاضطرابات السياسية، وجهز أسطولاً بحرياً ففتح جزيرة «قبرص» وطرق أبواب القسطنطينية، وجعل عاصمة الإسلام مدينة متمدنة

متقدمة، فشاد «قصر الخضراء» على طراز اختلطت فيه الأبهة الرومانية بالترف الفارسي، وجهزه بأسباب الترف والنعيم، واستبدل الغناء البدائي باوركسترا حشد لها أشهر الموسيقيين الفرس، وأمهر الجواري المغنيات وأجمل الراقصات الروميات، وأخذ عن الروم والفرس تقاليدهم وطرائق حياتهم وأنظمتهم الاجتماعية والإدارية والسياسية، نابذاً كل ما هو متخلف وبدائي في المجتمع العربي، في ظل ثورة غريبة حديثة!!

لقد أصبحت حياة معاوية حياة حديثة متمدنة، بغض النظر عن قضية الحق والباطل، والظلم والعدل، وسواء كان الحق إلى جانبه أم إلى جانب علي، فإن معاوية كان مظهراً راقياً ومتقدماً وحضارياً، وإن إنجازات حضارية تستمر في عاصمته تليق بعظمة الدولة الإسلامية، وبطريقة حياته وأبهة مظاهره، حافظ على جلال الإسلام وعظمته أمام أعدائه الأجانب من الروم والمجوس!!

ومن ناحية أخرى، يتابع مبررو فلسفة التخاذل والاستسلام، فإن الوضع الجديد المنبثق من التأثر بعوامل التغيير ورياحه التي انطلقت من المجتمعات المتمدنة، يحتاج إلى نظام جديد للخلافة يتلاءم مع سياسة ذات حرية ورفاه، ويدفعه إلى فتوحات أوسع ومراحل تطور أبعد، سواء من حيث تقدم الإسلام بارتفاع كلمات الشهادة من على منابر المساجد وأبراج الكنائس، أو سيل الأموال والغنائم المتدفق على بيت مال المسلمين. فإذا تحدثنا مرة أخرى عن الحق والباطل، فإن هذه الأموال تصرف في بلاد الإسلام

ويتمتع بها جماعة المسلمين، أما هذه الفتوح فهي إشغال للشباب عن اللهو وأمجاد للقادة وميادين عمل لسائر المسلمين..

أليس هذا هو أفضل جواب على سؤال: ما العمل؟

ثم يمضي هؤلاء في اجتهاداتهم الرامية إلى إجهاض حركة الحسين فيضيفون: إن التزامات ومثل عصر الثورة في زمن الرسول يجب تطويعها لكي تتوافق مع الوضع الجديد المتطور للمجتمع، فقد تغيرت ملامح ذلك العصر، وخرج الإسلام من حيز مكة والمدينة فامتدت حدوده إلى بلاد فارس والروم، فلا يمكن، بعد الآن، الخضوع لمباديء علي ومثالياته ونظامه الصارم. إن نهج علي وأفكاره وسياسته الشاقة وعدالته الجافة رفضها حتى أخوه والتحق بمعاوية، فماذا ننتظر من أبناء مجتمعات الروم والفرس ورعايا كسرى وقيصر؟ نعم!! لننظر بعين الواقع إلى التطورات الجديدة ومجرى الأمور السائدة، فإن ما يمتلكه الأمويون، من الذهب والقوّة والذكاء والسياسة، كله لمصلحة الإسلام وتعظيم شعائره وتوسيع رقعته، وإسناداً له في حربه مع الكفر، وزيادة في الثروة ورفاه العباد، فالأمويون في النهاية يخدمون الأمة والدين!!

أما وأن الأمر هو هكذا تحت الحكم الأموي، يتابع هؤلاء، فإن خير جواب على «ما العمل؟» هو الانضمام إلى الجهاز الحاكم بدلاً من إثارة الفتن الداخلية والحروب السياسية والانحراف في البحوث النظرية النيرة عن الحق، والعدل، والإمامة، والوصية،

والتقوى، والزهد، والسنة، والبدعة، فذلك لا يعود على الناس بفائدة، وهي حرب محكوم عليها بالفشل، إضافة إلى أنها طعن في ظهر الخليفة وهو يجاهد الكفرة والأعداء جهاداً مقدساً، وبالتالي، هي فتح لثغرات في الجبهة الداخلية تشغل وتضعف قوة الإسلام الرسمية التي تحارب على الجبهات الداخلية!! فلننفض أيدينا من النضال السياسي، ولننتمي إلى هذا الواقع فندعمه لصالح الأمة والدين. أما إحقاق الحق ومناصرة الطبقات المظلومة ومحاصرة الفساد الأخلاقي، فإن ذلك كله في حاجة إلى القوة والمركز الاجتماعي!!

الحسين: نعم للثورة

كانت هذه هي العواصف والاعتراضات والاجتهادات التي جابهت الحسين وهو يتهيأ للخروج وإعلان الثورة!!

لقد قاد حملة إحباط حركة الحسين علماء ومفكرون و. . . أفراد من بني هاشم، حتى والمثقفون من شيعة علي!!

وكان ذلك موقفاً غريباً مذهلاً!!

فأما العلماء والمفكرون فكانوا يقولون: إننا الآن وقد مرت خمسون سنة على وفاة رسول الله، وبعدما منيت ثورة علي بالهزيمة، وصالح الإمام الحسن مضطراً، ثم مات مسموماً، وكان آخر قائد للمقاومة ضد الظلم والرجعية القديمة، لم يعد ثمة فائدة من «العمل» والتحرك على صعيد النضال السياسي والعسكري.

وليس أمامنا سوى أن ننصرف إلى بث العلوم الدينية والمعارف الإلهية والقرآنية والفقهية، وإرشاد الناس إلى معاني ومرامي الدين الإسلامي، ورواية المغازي والسير. فلا طريق إلى تبليغ الحقائق الإسلامية وخدمة المسلمين وبث المعارف بينهم إلاّ طريق الفكر.. والفكر فقط!!

وكان أعجب من موقف هؤلاء، هو أن يبادر المثقفون من شيعة علي وبني هاشم ومن يمت اليهم بصلة إلى اتخاذ نفس الموقف، وتبني نفس الآراء، منطلقين جميعاً من منطق الإستسلام والتراجع، مبررين مواقفهم هذه بأن كل عمل نتيجته الهزيمة وليس بين أيدينا القدرة لمقارعة السيوف والرماح، فنحن عزلاء وسبحانه تعالى يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. ثم إن حرباً نتيجتها الهزيمة المحتومة هي انتحار لصالح الكفر والظلم، وإن أفضل الجهاد الآن هو تربية الناس وتعليم القرآن وتبليغ الأحكام ونشر الأحاديث!![١].

إذن.. الكل: المرتبطون بالسلطة، والزهاد «المقدسون» والعلماء والمفكرون و.. الشيعة، رواد الحق المثقفون، هؤلاء الذين يملكون الرؤية الاجتماعية والسياسية الواضحة، هؤلاء في سنة ستين للهجرة كان جوابهم جميعاً على (سؤال العصر) وكانت

(١) نذكر في هذا الصدد النصائح التي أسديت للحسين من قبل بعض أقربائه، حين أرادوا صده عن الخروج إلى الكوفة معتمدين على هذا المنطق، ومنهم عبد الله بن جعفر زوج السيدة زينب التي طلبت منه الطلاق لتكون حرة في اللحاق بأخيها. (المؤلف).

فتواهم كلهم بلا استثناء: لا... للثورة!![1]

واحد فقط.. وحده يملك حق الإجابة والفتوى، قال: نعم... للثورة!!

وكانت «نعم» الحسين هذه تعني أن شخصاً واعياً حراً لا بد وأن يكون مسؤولاً عن رفع راية الجهاد، مهما بلغ المدى الذي وصلت إليه من الخور والتخاذل والاستسلام، ومهما بلغ ظلم السلطة من الشدة والقوة ومن البطش والقهر والقمع!!

وحده، الحسين، كان «البطل» لأنه وحده كان «التاريخي»، وفي المدى فإن البطل التاريخي، هو الذي يجيب عادة على سؤال العصر ونداء العصر!

وكانت فتوى الحسين وردوده على كل الاجتهادات والاعتراضات والتبريرات: فكرية كانت أم سياسية أم دينية أم دنيوية، فتوى جامعة شاملة حاسمة، لقد قال: نعم، إن في «عدم الاستطاعة» هذه «وجوباً»، فالحياة عنده تعني العقيدة والجهاد، وحياته وحيويته تفرضان عليه سلوك هذا الدرب، وفي النهاية فإن

(١) إن الذين يدعون أن الحسين ثار من أجل الاستيلاء على السلطة، لكن هذه الثورة انتهت بالفشل لخيانة الناس، وانقلاب الكوفة، يذهبون في إثبات منطقهم هذا فيقولون: إذا كان الحسين سار وهو مصمم على أن يُقتل فإن ذلك لا يسلم من إشكال، فإن قتله أمر لا فائدة منه، بل الفائدة ذات الأهمية هي أن يجلس في مسجد جده في المدينة ويشرع برواية الحديث ـ الذي لم يصلنا عن طريق الحسين شيء منه بخلاف سائر الأئمة ـ ولكان أسدى بذلك للأمة فائدة كبيرة.

«الإنسان الحي» هو المسؤول عن الجهاد وليس «الإنسان القادر»!

فمن هو أكثر حيوية وحياة من الحسين؟ ومن في تاريخنا أحق منه في الحياة وأحق منه في أن يبقى حياً؟ وإذا كانت إنسانية الإنسان ووعيه وإيمانه وحياته، هي التي تجعله مسؤولاً عن الجهاد، فإن الحسين هو المثل الأعلى «للإنسانية الحية والحب الواعي».

والحسين أفتى بالجهاد، ومن هو أحق منه بالافتاء؟

كيف لا يقول «نعم» للجهاد، وكيف لا يفتي بـ«نعم» للثورة، وهو يرى الزمان في حكم بني أمية، وعلى رأسهم يزيد، وقد اتخذ هذه الصورة البشعة المروعة:

خمسون سنة على قبض النبي إلى الرفيق الأعلى تمر: وها هو لم يبق أحد. قتل علي، وسم الحسن، ومات أبو ذر، واستشهد عمار، وفي الجيل الثاني أحدثوا المذابح الجماعية واستشهد حجر بن عدي ورفاقه. العقول والأفكار اندثرت وابتلعتها الظلمة، وران عليها اليأس، في حين يخيم الصمت ويحكم القلق في كل مكان!

باعة الضمائر واللاهثون وراء الجاه والمال، الذين طالما باهوا بأمجادهم في عصر الثورة، افتضحوا أخيراً، وبايعوا الظلم والجور جهاراً.

وجوه الأمة وحملة شعار الصحبة وضعوا رؤوسهم في بيوت

الأموال، واتكأوا وقد مدوا أيدي الجهاد إلى مصافحة الجلاد، وتعلقوا في منتهى الذلة بأذيال يزيد.

وفي ظل السيف امتد الأمن الأحمر من خراسان إلى دمشق، وصارت المذابح الجماعية والهزائم والخيانات هي الخبر اليومي، وخيم اليأس الأسود فوق أقطار الإمبراطورية، وأمطر الموت، وحبست الأنفاس في الصدور:

لا تحس في ديارهم حركة

لا يطرق سمعك حتى صوت بومة

المعذبون، بلا أنين ولا آهات

القبضات القوية التي تطال السماء

والغاضبون، بلا أفواه ولا أصوات

ارتخت شيئاً فشيئاً فبدا ما كانت تقبض عليه!

وسراً أو جهراً، أصبح الأعزاء وذوو القوة،

آنية بيد الشحاذين

لا تحس في الديار حركة،

«اقتلعوا أعواد المشانق وغسلوا آثار الدماء»

لقد نبتت في مزارع الغضب والحقد،

أعشاب ذليلة ذاوية!!

ثم إن الحسين ينظر إلى صورة زمانه فيرى الصورة تزداد قتاماً وتجهماً، ويرى كيف تجري خيانة الإسلام، وكيف يُمارس على قيمه الإرهاب:

الدخان أسود أسود!! تستيقظ فيه من جديد الجاهلية والطبقية، وأمل الحرية والمساواة الذي كان في قلوب قوم، ضحوا من أجله بالغالي والنفيس، يتوارى، والجاهلية الطبقية العنصرية أصبحت الوريث لمكاسب الثورة الإنسانية. أما «كتاب الصدق» فقد رُفع على رؤوس الرماح، ومن على المآذن ارتفع صوت الشرك، ونطق بالتوحيد «عجل السامري»، واتكأ النمرود على سنة إبراهيم، واعتمر قيصر عمامة رسول الله، وصارت بيد الجلاد قبضة سيوف الجهاد، وأصبح الإيمان أقراصاً «للتنويم»، وصار التوحيد «وسيلة للكفر»!!

انقلبت القيم وزُهقت المبادىء، وسُحقت التعاليم وهوت الرايات وذهبت الرياح بجهود المجاهدين، وجاءت بكنوز الذهب للمنافقين. أصبح الجهاد قتلاً جماعياً، والزكاة انتهاباً ومصادرة، والصلاة خداعاً للجماهير، والتوحيد ستاراً للشرك، والإسلام قيوداً للاستسلام، والسنة قاعدة للسلطة، والقرآن عدة للجهل، والحديث عرضة للوضع والتزوير. وتهاوت السياط على المتون، وعادت الأمم المعذبة إلى السجن القديم، والحرية إلى القيود الأبدية السوداء، والأحرار إلى الأسر، والفكر إلى الصمت، والألسن قُطعت أو اشتُريت. أما أصحاب السابقة والجهاد فقد تقاضوا الثمن

إمارات وولايات، أو اعتزلوا إلى العبادة، أو ساوموا على السكوت عن الظلم والرضا بالكفر، أو واجهوا النفي والموت في صحراء الربذة ومرج عذراء!!

الزمان أسود أسود!! لقد كُسرت السيوف، وخُفت صوت المعارضة، وخبتت جمرة التمرد وهدأت كل الفتن، وألقى ظلام الليل العميق المرعب ظلاله على «آثار الشهداء» و«مقابر الأحياء الصامتة الباردة»، وعلى أطلال العقيدة والإيمان والأمل، لم يعد يُسمع صوت حتى لبومة!! فلقد ذاق الناس طعم التجارب المرة، وعرفوا أن الهزيمة أو الاستشهاد هما ثمرة كل ثورة أو عصيان!

الصمت، الصمت.. فليسكت الأحرار والثوار، ولتمرح الثعالب وتستكلب الذئاب، فالجاهلية الجديدة أثقل ظلاً وأشد ظلمة ووحشية، والعدو الآن أشد دهاء وأكثر نضجاً وذكاء، والدين والدنيا صارا على هدى الكفر والجور!!

هذا هو الزمان الذي رآه الحسين ونظر إليه فأمعن فيه النظر..

إنه الزمان ـ الليل!!

وفجأة سطع ضوء في الظلام، ودوى صوت في الصمت!

انظروا: لقد أضاءت ملامح «شهيد يخط على التراب»!

انظروا: من أعماق الظلام، من ركام الذل، أضاءت ملامح أمل جديد في دجى اليأس المطبق!

انظروا: لقد جاء الحسين البطل.. جاء الرجل التاريخي ليلعب دوره التاريخي!

ومرة ثانية، من بيت فاطمة الصامت الحزين، البيت الذي وسع التاريخ كله فكان أكبر منه، خرج رجل غاضب ومصمم، كأن له القدرة على دك قلاع الظلم، كأن في صدره إعصاراً، هو الآن في طريقه إلى الانطلاق!

رجل خرج من بيت فاطمة، وتلفت حوله فرأى مدينة ومسجد رسول الله، وكعبة إبراهيم تساق في قيود النمرود، والإسلام ورسالة محمد وآمال الفقراء والجياع تساق إلى «قصر الخضراء» في دمشق!

رجل خرج من بيت فاطمة، يثقل كاهله حمل المسؤولية!

رجل هو الوارث الكبير لفوادح وعذابات الإنسانية!..

وحده وارث آدم ووارث إبراهيم!.

وحده وارث محمد!..

رجل خرج من بيت فاطمة وحيداً، أعزل، بلا سلاح أو رفيق، لكنه ثائر على وحشية هذا العصر وظلمته وقيوده!..

رجل لا يملك سلاحاً غير الموت! لكنه من أهل بيت تعلموا في مدرسة الحياة: «فن الموت جيداً» وهو فن حرم منه العدو، والأبطال وحدهم أتقنوه واطمأنوا إلى نتائجه واستقبلوه بلا تردد، وبتصميم تام.

إن الموت فن الحسين، وليس في العالم رجل غيره يعرف كيف يجب أن يموت، ولماذا!!

لقد قام الآن «معلم الشهادة»، قام ليعلم الذين ظنوا أن الجهاد يجب بالقدرة، والذين توهموا أن النصر هو فقط الغلبة على العدو، قام ليعلمهم: أن «الشهادة» ليست «خسارة» إنها «اختيار»، اختيار المجاهد للتضحية على أعتاب محراب الحرية ومعبد الحب، اختيار الجهاد والنصر.

إن الحسين وارث آدم الذي أعطى الإنسان الحياة.

وارث الأنبياء الذين علموا الناس كيف الحياة.

وها هو في هذا العصر يعلم «أبناء آدم» كيف يموتون.

ها هو ليقول للناس: إن الموت الأسود هو مصير مشؤوم ينتظر كل ذليل يصافح العار لكي يعيش، وأن من لم يجرؤ على اختيار «الشهادة» سيختاره الموت!!

فلسفة الموقف الحسيني:

إن معنى الشهادة هو أكبر بكثير مما بينته، أو مما أنا في صدد تبيانه، فالشهادة تعني: الحضور، والابصار، والأخبار، والشهود، والصدق، والأمانة، والوعي للشخص الذي تتطلع إليه العيون، وهي تعني أخيراً: القدوة والنموذج.

الشهادة في قاموس مذهبنا، ليست حادثاً دامياً منغصاً كما هي عند بعض الأمم في تاريخها: مجرد تضحية يقدم عليها أحد

الأبطال، إذ يُقتل بيد عدوه في ساحة القتال، فيكون موته مبعث ألم، ويكون اسمه «شهيداً» وموته «شهادة»!

لا!! الشهادة في معارفنا ليست موتاً يفرضه العدو على (المجاهد). بل الشهادة: اختيار واع يقدم عليه المجاهد بكل طواعية ووعي وإدراك ويختاره بدافع ذاتي بعيد!

ذاك هو الحسين، فيه وبموقفه تمثلت الشهادة وتمثل الشهيد!!

لقد ترك مدينته وخرج من بيته نافضاً يديه من الحياة، مختاراً الموت، حيث كان لا يملك في مواجهة عدوه سوى هذا السلاح العظيم: الموت. وبهذا السلاح واجه العدو وفضحه وهتك أقنعته، وهو إن لم يكن في مقدوره قهر العدو وهزيمته في ساحة القتال، ففي مقدوره، عبر الموت، أن يفضح هذا العدو. إنه كإنسان أعزل، وحيد، وفي نفس الوقت مدرك لمسؤوليته، لم يكن يملك إلاّ سلاحه الواحد: تلك الميتة الحمراء!

إن «حسينيته» تضعه في موقع المسؤولية للنضال ضد كل أنواع الاضطهاد والاذلال، ولما لم يكن لديه من سلاح سوى وجوده، فقد حمله على راحتيه وبرز به إلى مقتله، ثم بخطى واعية، ثابتة، دقيقة التنظيم، كانت مسيرته إلى تلك الشهادة. وعقب كل مرحلة كان يقطعها وهو يحث السير إلى هدفه، كان يشير ويوضح إلى أنصاره، أولئك الذين رافقوه ليموتوا معه، ثم إلى أهل بيته ـ الذين هم كل ما يمتلكه من الحياة ـ إلى هؤلاء جميعاً

الذين جاء بهم ليضحي بهم على محراب الشهادة، كان يشير ويوضح معنى مسيرته، ومغزى أهدافها ومعنى الموت الذي هو، وهم، في الطريق الآن إليه!!

ولقد قال الحسين يومذاك كلمته وأدى دوره!!

لقد كان الإيمان الذي يتعرض للانهيار، ومصير الناس الذين وقعوا أسرى ظلم واضطهاد أشد مما كانا في الجاهلية، والذين يطمحون إلى الحرية والعدل، هؤلاء كلهم كانوا ينظرون ماذا سيصنعه البطل!! أما هذا البطل الذي كان وحيداً أعزل بلا سلاح، فقد أظهر ببطولة نادرة ماذا صنع. لقد جاء بكيانه ووجوده وحياته، وجاء بأهل بيته وأعز الناس على قلبه، ليشهد ويشهدهم أنه أدى ما عليه في عصر كان الحق فيه، مثله، بلا سلاح ولا دفاع: «أشهدوا في أني لا أقدر على أكثر مما فعلت»! وعلى هذا فهو، في اليوم العاشر من محرم، يتلقى دم طفله الذبيح بيده فيصعده إلى السماء قائلا: «أنظر واشهد وتقبل هذا القربان!». وفي عصر كهذا، فإن «موت رجل» يكون ضماناً لحياة أمة وأساساً لبقاء عقيدة، وتكون «شهادته» إثباتاً لجريمة كبرى، وهتكاً لأقنعة الخداع والزيف، ولأقنعة الظلم والقوّة الحاكمة، وإدانة لسحق القيم ومحوها من الأذهان، بل إنه احتجاج أحمر على التحكم الأسود، وصرخة غضب في صمت قطع الحناجر!

إن الشهادة هي الشيء الذي يتغلغل في أعماق التاريخ، لتكون قدوة لمن يأتي ويريد أن يكون، وهي إدانة لهذا العصر الذي يمضي

بصمت. ثم إنها الطريق الوحيد، وشكل المقاومة الوحيد، وعلامة الحضور والدفاع عن العدل والصدق والحق الذي جرّده، بالخيانة والباطل والظلم، نظام هذا العصر من سلاحه. ثم دك قلاعه وقواعده، وأباد أنصاره وطلابه، وتهدد الإنسانية كلها بخطر الموت النهائي. كل هذه المعاجز تنبثق من «الشهادة» وفي كل هذا العصر لا بد من مصلح منتظر، والسنة الستون تطلّبت هذا المصلح المنتظر، بل لا بد من «قائم» في أطلال هذه المقبرة السوداء الصامتة!!

ولقد كان الحسين يعي أهمية هذه الرسالة التي وضعها مصير الإنسان على عاتقه، لذلك بادر بالخروج من مكة إلى مصرعه، وهو يعلم أن التاريخ ينتظر، وينظر إليه، وأن الزمن الذي يعود إلى الوراء على يد الرجعية يتطلع إليه ليتقدم، والناس المستسلمون للأسر بدون مقاومة في حاجة إلى نهوضه وإلى صرخته، وأخيراً فإن «رسالة الله»، التي وقعت في أيدي الشياطين، تريد منه أن يشهد «على هذه الجريمة» بموته، وذلك معنى قول: «شاء الله أن يراني قتيلاً».

والشهادة في فلسفتنا الأنتروبولوجية لها مفهوم خاص وهو: أن الإنسان من حيث تكوينه، هو مزيج من نزعات ربانية وأخرى شيطانية، من «حمأ» وروح، ثم هو خليط من «أسمى السمو» و«أقصى الإنحطاط». أما تأثيرات الدين والعبادة والرياضة الروحية وفعل الخير، فهي لصالح السمو وردع عناصر الإنحطاط وإضعاف للنزعات الشيطانية لصالح النزعات الإلهية.. وأما الشهادة، فهي عمل مفاجيء يحدث تحولاً ربانياً في الجانب الحقير والمنحط من

الإنسان إثر عملية توهج واحتراق في نار العشق والإيمان، ليصبح ذلك الإنسان طاقة نورانية إلهية محضة.

من هنا، كان الشهيد لا يغسل، ولا يكفن، ولا يحاسب يوم القيامة، لأن ذنوبه كانت قبل الشهادة، وهو ضحى قبل أن يموت و«حضر الآن». لذلك كان الحسين ليلة العاشر من محرم يتنظف ويستحم ويلبس أفضل الثياب ويسكب أفضل الطيب، وكان في أشد ساعات القتل والدم والإبادة والتأهب للموت وتكدس أجساد الشهداء من حوله، تتلألأ ملامحه وتضيء أساريره ويخفق قلبه بشوق أكبر، لأنه يعلم أن ثمة فاصلاً قليلاً بينه وبين الحضور، لأن الشهادة حضور أيضاً.

ثم إن الشهادة تختلف في نظرنا عما هي عليه في تاريخ الأمم من: أنها مصير محتوم بالموت للبطل (تراجيديا). الشهادة في قاموسنا «درجة»، فهي ليست وسيلة إنما هي هدف، إنها أصالة وتكامل وسمو، إنها مسؤولية كبرى وصعود من أقصر الطرق إلى معارج الإنسانية، إنها منهج. وفي جميع العصور، إذا ما هُددت عقيدة بالانهيار فإن أنصارها يدافعون عنها بالجهاد ويضمنون استمرارهم واستمرارها بقوة الدفاع والنضال، أما إذا عجزوا عن المقاومة، ولم يمتلكوا وسائل الدفاع وضعفت لديهم الإمكانيات، فإنهم سيحافظون على إيمانهم وعزتهم ومستقبل تاريخهم «بالشهادة». فالشهادة دعوة لكل الأجيال في كل العصور: إذا استطعت، انتزع الحياة وإلا فقدمها!

ماذا بعد الشهادة؟

أخواتي، إخواني. .

ماذا نحن، ومن نحن، وكيف نحن، بعد الشهادة؟!

الآن. . مات الشهداء ونحن الأموات. . أحياء!

لقد قال الشهداء كلمتهم ونحن الصم المخاطبون!

الشهداء الذين كانت لديهم الشجاعة على اختيار الموت ما داموا غير قادرين على الحياة!

الشهداء الذين أدوا رسالتهم، وأنهوا مهامهم ومضوا بهدوء، بعد ما بذلوا ما بذلوا على أكمل وجه، فاختاروا موتاً مليئاً بالحياة وبروعة الجمال!

جميعهم بدون استثناء: المعلم والمؤذن والشيخ والشاب، الكبير والصغير، المرأة والخادم، السيد والشريف، كلهم أعطوا دروساً وأصبحوا قدوة لمن جاء بعدهم: من طفل الحسين إلى إخوته، ومنه إلى غلامه، ومن قاريء القرآن إلى معلم أطفال

الكوفة، ومن المؤذن إلى القريب والبعيد، ثم من الشريف المبرز في مجتمعه إلى المحروم من كل مركز اجتماعي، كلهم وقفوا متكاتفين بين يدي الشهادة، ليقولوا لجميع الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والشبان، على مدى الأيام، كيف يعيشون؟ ـ إذا قدروا ـ وكيف يموتون إذا لم يقدروا على الحياة؟ وتلك كانت مهمتهم الأولى التي أدوها. . .

أما المهمة الثانية فهي شهادتهم في محكمة التاريخ. .

وهي شهادة بالدم لا بالكلمة. .

لقد شهدوا جميعاً ـ وكل منهم شهد ممثلاً لطبقته ـ بأن نظاماً واحداً كان يحكم تاريخ البشرية، ويتحكم بهذا التاريخ:

نظام سخّر السياسة، والاقتصاد، والدين، والفن، والفكر، والفلسفة، والأخلاق، والذوق، والبشرية، ليصنع من ذلك كله قواعداً لدولة الظلم والجور والجريمة، مضحياً بالإنسان على مذبح مطامعه ثم متحكماً بهذا الإنسان وقيمه.

وحاكم، على رأس هذا النظام، يتحكم بقيم الإنسانية ويحكم التاريخ بالقسر، جلاد راحت ضحية سيفه آمال جيل من الشباب، وانطفأت في ظله أماني أمة، وتلون تحت سياطه جوانب النساء، ومن أجل أن يرضي رغباته ويعمر حياته، أباد وأجاع واستعبد رجالاً ونساءً، أبطالاً وأطفالاً، مؤذنين ومعلمين في جميع الأزمان ومن كل الأجيال.

نظام أسود مثل هذا النظام كان يجب أن ينهار، ولا بد من أن ينهار!

ولهذا جاء الحسين!

جاء بوجوده ودمه وحياته ليشهد في محكمة التاريخ على شاطيء الفرات، للمعذبين والمقهورين والمحكومين بسيف هذا الجلاد.

ثم يشهد بعلي فيعطي الشهادة للأبطال، كيف يموتون في مملكة الجريمة ونظامها.

ويشهد بنفسه، ثم بزينب، ثم بطفله الرضيع، كيف يموت هو فداء للقيم، وكيف تنتهي زينب بقية للشهداء وحارسة ركب الأسرى، وكيف يصعد دم طفله الرضيع قرباناً إلى الله، وكيف أن الأطفال في ظل أنظمة القهر والقسوة لم تدركهم رحمة الجلادين والقساة؟!

هؤلاء هم الشهداء العظام الذين رحلوا وبقينا..

فانظروا من رحل وانظروا من بقي..

رحل الكبار وبقي الصغار..

رحل الأحياء وبقي الأموات..

رحل الأعزاء وبقي الأذلاء..

بقينا نحن، صور الذل والحقارة، نبكي على الحسين

وزينب، أمثلة الحياة العزيزة، ونكتفي من البكاء على الحسين وزينب بالمزيد من البكاء . .

فإذا كان الظلم والبطش والقمع والقهر، وكل ألوان الإستعباد والإذلال، قد ظلمت الحسين وزينب ومن رافقهما من الشهداء الأبرار، أليس بكاؤنا وتخاذلنا نحن اليوم هو ظلم آخر من ظلم التاريخ يمارس عليهم مرة أخرى؟

لقد وقّع الشهداء في يوم كربلاء ميثاقهم بدمائهم، وجلسوا على الأرض مواجهين لنا يدعون مقعدي التاريخ للقيام!!

وإننا المقعدون وهم الثوار.

ونحن الأذلاء وهم الأعزاء.

ونحن البكائين وهم الأبطال.

فمن أين للحسين ورفاقه العزاء إذا كنا نحن المعزين؟

إن نظرة إلى واقع الشهادة وإلى واقعنا، بعد الشهادة، تثبت هذا الفارق الكبير ما بين قيم الشهادة ومباديء التشيع، وبين ما نحن عليه من تخاذل وخور وتراجع وإذلال . .

أما «الشهادة» فقد أوردنا قيمها وصورها ومعالمها، وأكدنا أن معنى «الشهادة» هو اختيار الموت بديلاً عن حياة مهيضة في ظل الظلم والجور . .

وأما مدرسة «التشيع» فتبقى بواقعها ومفهومها ومضمونها،

الصورة الأمثل لما نحن عليه من تخلف وفرقة وتخاذل ومذلة . .

ففي معارفنا ومذهبنا وتاريخنا، أن التشيع هو أغلى جوهرة أبدعتها البشرية، إنه الحيوية التي تهز التاريخ وتحرك الحياة، والمدرسة التي أعطت أبلغ الدروس الإلهية . .

إن مبررات هذه المدرسة وكنوزها هي اليوم في أيدينا نحن!

نحن ورثة أعز أمانة أوجدتها الشهادات والنضالات، وأفضل القيم في تاريخ الإنسانية.

نحن ورثة ذلك كله، المسؤولون عن خلق أمة تكون قدوة للبشرية:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ . . .﴾[1].

نحن المخاطبون

نحن المكلفون بأن نصنع بميراث شهدائنا ومجاهدينا وأئمتنا وقادتنا وإيماننا وكتابنا، أمة تكون شاهدة على الناس تكون قدوة للعالم ويكون الرسول قدوتها!

فأي أسى أن تكون رسالة بهذه الأهمية، رسالة تهب الحياة والحركة للبشرية، في عهدتنا نحن العاجزين حتى عن ممارسة حياتنا اليومية؟

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

وفي حين أن في مدرسة التشيع دروس كبيرة ورسالة أكبر وقيم آلهة قادرة على أن تحرك حياة وتبني تاريخ أمة، وإن فيها ما هو عظيم وغال من القيم في تاريخ البشرية وهو «الشهادة».

في حين أن مدرسة التشيع هذه هي صورتها، وهذا هو مثالها، وتلك هي قيمها وشهودها ومبادؤها وتعاليمها، لننظر، نحن ورثة هذا الميراث التاريخي الأعظم، ما نحن عليه من واقع:

لقد انصرفنا عن كل هذه القيم والمعاني والمباديء والتعاليم والدروس، إلى ما يتناقض ومعنى «الشهادة». فنحن كما يقول جلال(١): «منذ أن نسينا الشهادة واتجهنا إلى مقابر الشهداء، فقد أسلمنا رقابنا للموت الأسود، ومنذ أن نسينا أن نتشيع لعلي والحسين وزينب، نسينا أن نقتدي بالشهداء، وجلس نساؤنا ورجالنا للعزاء، وأصبحنا في مأتم دائم»!

وذلك كان أكبر انتصار ليزيد وما يمثله يزيد.

ذلك أننا نعزي ونحزن لرجال ونساء وأطفال أثبتوا في كربلاء حضورهم في التاريخ وبين يدي الله وفي محاريب الحرية، ونكتفي من ذلك بالبكاء، وكأننا أصبحنا شركاء ليزيد.. أليس يريد يزيد التقاعس عن ظلمه والتخاذل عن صده والتراجع عن مقارعته..

---

(١) هو أحد الأحرار المناضلين، هو جلال الدين آل أحمد المعلم والكاتب، الذي ترك أكثر من خمسين مؤلفاً في القصة والسياسة وأدب مرحلية والاجتماع. وله مدرسة متميزة في كتابة النثر الفني في اللغة الفارسية (المؤلف).

والاكتفاء بالبكاء؟! أليس يزيد هو نفسه من يتمنى ويريد لنا مثل هذه النهاية؟!

سرعان ما قلبوا بذكاء، والمقصود نحن، رسالة الحسين وأنصاره الأوفياء، رسالتهم الموجهة إلى الإنسانية جمعاء، فأساؤوا لذلك النداء الذي نادى به الحسين بعد مقتل أنصاره ولم يعد أمامه سوى سيوف الأعداء ورماحهم وحقدهم: «هل من ناصر فينصرني»؟!

وحين أطلق ذلك النداء كان الحسين يعلم، أن لا ناصر في ذلك اليوم ولا مؤيد أو منتقم بعد ما قتل جميع الأهل والأنصار، لكنه كان يوجه نداءه ـ السؤال إلى تاريخ البشرية الآتي ـ إلى أجيال المستقبل القادمة: إنه سؤال ينتظر الجواب لمن يؤدي رسالة الشهادة ويوصلها إلى من يعظمها ويكبر دورها:

لكن مثل هذا النداء ـ الدعوة، مثل هذا الانتظار، مثل هذا التوقع الذي يطلب شيعة وأنصاراً يسيرون على درب الشهادة ويكملون الرسالة، عمدنا نحن إليه فأطفأنا وهجه حين قلنا للناس: إن الحسين لا يطلب سوى الدموع والصراخ والبكاء ولا يطلب منا رسالة. إنه مجرد ميت ينتظر إقامة المأتم وليس شهيداً حاضراً في كل مكان وزمان طالباً أتباعاً وأنصاراً ومؤيدين.

نعم! هكذا قالوا ويقولون لنا.

لكننا نقول العكس ونرد عليهم:

كل ثورة لها وجهان: «الدم» و«الرسالة».

أما الذين اختاروا الميتة الحمراء بأيديهم، دليلاً على حبهم للحقيقة المهددة بالاندثار، واستعملوا سلاح النضال الوحيد والفاعل ليحافظوا على قيم عزيزة مهددة بالمسخ، هؤلاء هم رجال حاضرون وشهود مبصرون عند الله وعند الخلائق وفي كل أرض وعصر وجيل.

أما أولئك الذين يمدون الذل طلباً للعيش الرخيص، فهم موتى التاريخ المهانين.

ولنقرر: من هم الأحياء؟! أولئك الذين بذلوا أنفسهم بسخاء واختاروا الموت مع الحسين مع أن كل شيء كان يغريهم ويدعوهم للحياة والخلاص، أم هؤلاء الذين اختاروا إذلال يزيد وعار التخلي عن الحسين؟

من هم الأحياء اليوم؟ أولئك أم هم؟

إن الذي لا يرى الحياة جثة تتحرك، هو وحده الذي يرى الحسين وحضوره وكامل وجوده، ويحس موت أولئك الذين صافحوا الذل لمجرد أن يبقوا على قيد الحياة!!

الشهداء وحدهم الأحياء.

الشهداء هم الذين يعطون الإشارة ويعلمون وينادون قائلين: لا، الجهاد لا يتم بالقدرة والنصر، ليس هو تحقيق الغلبة، لا، إن الموت هو طريق الجهاد وهو وسيلته متى انتفت القدرة على الغلبة

بواسطة السلاح، وبالموت يتم الانتصار على الأعداء. إن الشهيد هو قلب التاريخ النابض بالحياة، وكما يهب القلب الحياة والدم للشرايين اليابسة، تكون الشهادة دماً يجري في شرايين مجتمع يسرع نحو الموت ويفقد أبناؤه الثقة والإيمان بالقيم، مجتمع آثر الاستسلام وتناسى المسؤولية والإيمان بالإنسان وتلاشت حيويته وحركته وتجمد إبداعه..

إن «الشهادة» تعطي مثل هذا المجتمع دماً وولادة وحركة جديدة. وأكبر معاجز الشهادة هي إيصال الحياة والدماء إلى الأجزاء الميتة من ذلك المجتمع، من أجل ولادة جيل جديد وإيمان جديد!!

الشهيد الحاضر

ثم، متى كان الشهيد غائباً؟

ومن قال إن حضور المرء إنما يكون بجثمانه لا بالقيم التي يخلفها؟

لا، الشهيد حاضر وخالد...

لقد أعطانا الحسين درساً أكبر من دروس شهادته عندما ترك الحج المندوب وتوجه إلى الشهادة. لقد تخلى عن هذه المناسك التي ناضل من أجلها جده وأبوه، فتركها ناقصاً وذهب إلى الشهادة التي فضلها واختارها عليها. لقد حل نفسه من إحرامها ونفض يديه من مناسك الحج، ليعلن للحجاج والمصلين والطائفين والمؤمنين

بسنة إبراهيم: إن صلاتهم وطوافهم حول البيت دون قيادة وإمامة وهدف، وفي ظل يزيد بعيداً عن الحسين، ما هو إلا دوران وثني جاهلي حول الكعبة والأصنام تملأها!!

إن قوماً ممن تركهم الحسين في الكعبة، حين خرج إلى الشهادة، منهمكين في طوافهم حولها، هؤلاء القوم كانوا في طوافهم هذا، لا فرق بينهم وبين أولئك الذين كانوا يطوفون حول «القبة الخضراء» لقصر يزيد في دمشق!!

لأن الشهيد يحضر حيث الحضور واجب وأكيد ولازم.

الشهيد حاضر في جميع ساحات الحق، وهو شاهد على نضال العدل ضد الظلم والجور، حاضر ويريد بحضوره هذا أن يؤدي رسالته للإنسانية كلها، حتى إذا طلبته وجدته على جميع الساحات، بل وفي الساحة التي طلبته فيها!

ذلك أن «الشهادة» هي، أولاً وأخيراً، «حضور» دائم في ساحة المعركة التاريخية الناشبة بين الحق والباطل!

وأولئك الذين غابوا عن الحضور والمشاركة يوم حضر الحسين «للشهادة» وتركوه وحيداً، كانوا كلهم بفرقهم الثلاث سواء:

ـ الذين صاروا آلة في يد يزيد وأجراء عنده.

ـ والذين جذبهم حب الجنة فاعتزلوا في الصوامع وزوايا العبادة متخلين عن المسؤولية.

ـ وأخيراً الذين أصاب قلوبهم الهلع من المعركة، فانجحروا خائفين مرتعدين في بيوتهم.

هؤلاء كلهم سواء، لأن من غاب عن الحسين في عصره، ثم غاب عن كل العصور والساحات التي يحضرها الحسين، فله أن يكون حيثما يشاء، له أن يكون قائماً لصلاة أو جالساً لشراب، وله أن يكون إما كافراً مجرماً أو عابداً مؤمناً، فالنتيجة سواء!!

أما الحسين فقد كان حاضراً في كل العصور والساحات، ولقد مات في كربلاء، ليعلن عن بعثه ووجوده إلى جميع الأجيال في كل العصور!!

وتلك هي أصول التشيع!

وهي أصول تعني أن قيمة كل عمل إنما هي مرتبطة بالإمامة، بالولاية، ولا وجود لها، كما هو حاصل اليوم، دون هذا الإرتباط. وعلينا جميعاً أن نأسف ونبكي لأننا لم نحضر حين حضر الحسين وحيث حضر!

زينب الرسول

نعم! لكل ثورة وجهان: «الدم» و«الرسالة».

أما الرسالة فقد أداها «الحسين» وأصحابه: وكان أداؤها بالدم، فوصل إلى مسامع العالم صوت الدم ونداء الأجساد الهامدة بين «الأموات المتحركين»!!

أما الرسالة الثانية فكان واجب أدائها على عاتق امرأة رقيقة تركت منزل زوجها، وأسرعت تحث الخطى خلف أخيها في رحلته إلى الدم والشهادة!..

تلك المرأة النبيلة العظيمة هي: «زينب».

المرأة التي تعلم الرجال من سيرتها معاني الرجولة.

ولقد كان واجب «زينب» وكانت مسؤوليتها التاريخية الكبرى هي إكمال الرسالة وإتمام المسيرة..

فالآن وبعدما أقدم الأبطال على أمر عظيم هو اختيار الموت، كانت مهمة من تبقى بعدهم أشق وأصعب.

ولقد بقيت «زينب» ووراءها قافلة من الأسرى وأمامها صفوف العدو تملأ الأفق وتسد طريقها.

بقيت «زينب» وحدها وعلى عاتقها تحمل رسالة أخيها.

لقد غادرت الساحة تاركة خلفها حدائق الشهادة الحمراء، ساطع من أكمامها عطر الورد الأحمر، فدخلت مدينة الجريمة: عاصمة القهر والقسوة، وهناك رفعت صوتها المدوي!..

كانت «زينب» رسول الشهداء الخالدين، وبقية من استشهد، فكانت لساناً لمن قطعت ألسنتهم سيوف الجلادين، وهي رأت أنه إذا لم تكن للدم رسالة ولم يكن له رسل لبقي صوتاً أخرساً في التاريخ، وإذا لم يوصل الدم رسالته إلى جميع الأجيال، فسيحاصره الجلادون ويسجنونه في زنزانة عصر واحد.

وعلى هذا رفعت «زينب» الصوت، فدخلت مزهوة منتصرة إلى عاصمة الجلاد والمستبدين، وأطلقت رسالتها إلى كل من لهم عهد مع أهل هذا البيت، وكل من آمنوا برسالة محمد في كل عصر وجيل وأرض:

فكروا واختاروا واسمعوا نداء شهداء كربلاء. إسمعوهم فإنهم قالوا: من أراد أن يعرف كيف يحيا جيداً فليعرف كيف يموت جيداً.

يا من آمنوا برسالة التوحيد والقرآن وأخذوا بطريقة علي وأهل بيته.

أيها الآتون من بطون الغيب بعدنا:

إن أهل هذا البيت كما علموا الناس كيف يحيون علموهم أيضاً كيف يموتون، فإن كل إنسان سيموت كما عاش.

وإن رسالتهم إلى البشرية: إذا كان لكم دين «فالدين» وإذا لم يكن لكم دين «فالحرية» أمانة في أعناقكم، وليكن إنسانكم «المتدين» أو «الحر» شاهد عصره عند اعتراك الحق والباطل في ساحات النضال، فإن شهداءنا حاضرون أبداً، يحيون مثلاً وقدوة وشهوداً على الحق والباطل، وعلى قضية الإنسان ومصيره!

وتلك هي معاني «الشهادة»!!

وذلك هو كان موقف «زينب» العظيم، فلو لم تعاود إطلاق رسالة «كربلاء» لكانت حُبست هذه الرسالة في التاريخ وحُرم منها

أولئك الذين هم في حاجة إليها، ولما سمعت الأجيال صوت أولئك الذين تحدثوا إليهم بلغة الدم. .

ولقد كانت رسالة «زينب» شاقة وثقيلة، فهي موجهة للإنسانية جمعاء:

لأولئك الذين يبكيهم مقتل الحسين. .

وأولئك الذين خفضوا رؤوسهم أمام عظمة الحسين. .

وأخيراً أولئك الذين علمهم الحسين: أن الحياة إن هي إلاّ عقيدة وجهاد. .

نعم: كل ثورة لها وجهان: «الدم» و«الرسالة». .

وإن كل من تحمل مسؤولية قبول الحق واختارها. .

كل من عرف معنى ومسؤولية التشيع. .

ومعنى مسؤولية حرية الإنسان. .

عليه أن يعلم أنه في معركة التاريخ الدائمة، في كل العصور والأزمان، وفي كل موقع من الأرض:

فإن كل ساحة هي كربلاء. .

وكل شهر هو محرم. .

وكل الأيام هي عاشوراء. .

عليه أن يختار:

إما الدم أو الرسالة . .

إما دور الحسين أو دور زينب . .

إما تلك الميتة أو هذه الحياة . .

فإذا لم يكن كذلك فهو «غائب» عن الساحة . .

ولعلني أعتذر إليكم الآن، وما من فرصة أمامنا لحديث طويل[1] كما ليس ممكناً أن أتحدث في جلسة واحدة عن هذه المعجزة التي أسسها الحسين في التاريخ وتابعتها زينب . .

أما ما أحب أن أقوله بعبارة موجزة حول رسالة زينب بعد الشهادة فهو :

إن الذين مضوا كان عملهم حسينياً . .

والذين هم أحياء ينبغي أن يكون عملهم زينبياً . .

وإلاّ فهم يزيديون . . .

---

(١) يشير إلى تلاميذه عن انتهاء وقت المحاضرة.

دعاء

ليس من عادتي الدعاء في أعقاب حديثي لأنني أرى نفسي أقل من أن أصل إلى ذلك المقام، ولكنني أطلب منكم السماح ـ ونحن في هذه الحال ـ بأن أدعو كما ينبغي أن يكون الدعاء:[١]

إن الروايات تؤكد، وكذلك يقول «كارل الكسيس»، إن الدعاء ينبغي أن يكون كحديث الإبن للأب، وإذا كانت عند الإنسان الشجاعة بأن يلح في دعائه فإن ذلك يكون أقرب للاستجابة. .

---

(١) كنت قد كتبت قسم من هذا الدعاء قبل ثلاث سنوات لأدعو به لنفسي بشكل خاص، أما القسم الثاني فهو الذي أدعو به في هذا اليوم في أعقاب حديثي، وقد جمعت القسمين ليكونا متنا لدعاء مستقل على هذا الشكل.

ودعاء إنسان مثلي، في هذا الزمان والمكان، هو عرض للحاجة والقلة والأمل لهذا الجيل. .

أفليس التضرع هو دليل الحاجة؟

أليس التضرع عند الشيعة هو أسلوب من أساليب الكلام؟

فهل يجوز لمن يدعو بلسانه أن يكتب دعاءه؟ وهل يجوز لمن يخاطب الله بحاجته أن يرفع تلك الحاجة في (عريضة) مكتوبة؟

بناءاً على ذلك وضع هذا الدعاء!!

(المؤلف).

أصدقائي:

نحن في زمن رديء، وإنما أملي وإيماني بكم أيها الشباب..

أما هؤلاء الذين توصلوا إلى ما يريدون، فكان لهم مال وعلم ووظيفة ومراكز اجتماعية، فإن مسؤوليتهم تنحصر في محافظتهم على ما عندهم..

أما أنتم الذين ما زلتم تتمتعون بنعمة الحرمان، فلعلكم تقدرون على إنقاذ ما يتسرب من أيدينا، أو عمل شيء من أجل هذا في طريقه إلى النسيان..

يا رَبُّ

يَا وَاهِبُ ٱلْكَرَامَةِ لِلإنْسَانِ، وَيَا مَنْ وَضَعْتَ عَلَى عَاتِقِهِ أَمَانَتِكَ ٱلْغَالِيَةَ.

أَنتَ يَا مَنْ بَعَثْتَ رُسُلَكَ لِتَعْلِيمِ ٱلْكِتَابِ وَإِقَامَةِ ٱلْعَدَالَةِ.

أَنْتَ يَا مَنْ جَعَلْتَ ٱلْعِزَّةَ لِنَفْسِكَ وَلِأَنْبِيَائِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

نَحْنُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِكَ وَبِرُسُلِكَ: هَبْنَا ٱلْوَعْيَ، وَٱلْعَدْلَ، وَٱلْعِزَّةَ وَٱلْحُرِيَّةَ، فَمَا أَشَدَّ حَاجَتِنَا إِلَيْهَا وَنَحْنُ ٱلْيَوْمَ ضَحَايَا الأَسْرِ وَالْجَهْلِ وَالمَذَلَّةِ وَأَشَدُّ عَذَاباً مِنْ أَيِّ وَقْتٍ.

يَا رَبَّ المُسْتَضْعَفِينَ.

أَنْتَ يَا مَنْ أَرَدْتَ أَنْ تَمُنَّ عَلَى ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمَحْرُومِينَ وَالضُّعَفَاءِ وَالْمُعْدَمِينَ، أَذِلاَّءَ ٱلْعُصُورِ وَمُعَذَّبِي الأَرْضِ وَضَحَايَا الظُّلْمِ فِي التَّارِيخِ، أَرْشُدْهُمْ يَا رَبِّ إِلى

إِنسَانِيَّتِهِمْ «لِتَجْعَلَهُمْ ٱلْوَارِثِينَ» فَلَقَدْ آنَ الأَوَانُ وَالمُسْتَضْعَفُونَ مِنْ عِبَادِكَ تَخْرُقُهُمْ لَوْعَةُ الإِنْتِظَارِ.

وَيَا أَيُّهَا ٱلْغَيُورُ: وَحْدَهُمُ الْمُسْتَضْعَفُونَ يَعْبُدُونَكَ فِي هَذَا ٱلْعَصْرِ.

يَا رَبُّ.

يَا مَنْ أَمَرْتَ مَلاَئِكَتَكَ بِالسُّجُودِ لِلإِنْسَانِ، أُنْظُرْ إِلَيْهِ، الآنَ، كَيْفَ يَسْجُدُ عِنْدَ أَقْدَامِ ٱلْغِيلاَنَ وَالشَّيَاطِينِ.

أَمَّا هَؤُلاءِ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي عُبُودِيَّةِ أَصْنَامِ هَذَا ٱلْعَصْرِ.

ـ وَقَد صَنَعُوهَا بِأَيْدِيهِمْ ـ فَهَبْهُمْ حُرِّيَّةَ عِبَادَتِكَ.

يَا رَبُّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قَتَلَةُ الشُّعُوبِ وَجَلاَّدُوهَا الْمُتَسَلِّطُون.

يَا رَبُّ.

هَبِ الْمَسْؤُولِيَّةَ لِلْعُلَمَاءِ، وَٱلْعِلْمَ لِلْجَاهِلِينَ، وَالنُّورَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالإِيمَانَ لِلْمُفَكِّرِينَ، وَالتَّفَهُّمَ لِلْمُتَعَصِّبِينَ وَالتَّعَصُّبَ لِلْمُتَفَهِّمِينَ، وَالحِسَّ لِلنِّسَاءِ، والشَّرَفَ لِلرِّجَالِ وَٱلْوَعْيَ لِلشُّيُوخِ. وَالأَصَالَةَ لِلشَّبَابِ، وَٱلْعَقِيدَةَ لِلْمُرَبِّينَ، وَٱلْيَقَظَةَ

لِلنَّائِمِينَ وَالإِرَادَةَ لِلْمُتَيَقِّظِينَ.

هَبِ الْحَقِيقَةَ لِلْمُبَلِّغِينَ، وَالدِّينَ لِلْمُتَدَيِّنِينَ، وَالإِلْتِزَامَ لِلْكُتَّابِ، وَالْمُعَانَاةَ لِلْفَنَّانِينَ، والشُّعُورَ لِلشُّعَرَاءِ، وَٱلأَمَلَ لِلْيَائِسِينَ، وَٱلْقُوَّةَ لِلضُّعَفَاءِ، وَالْجُرْأَةَ لِلْمُحَافِظِينَ، وَٱلْقِيَامَ لِلْمُقْعَدِينَ، وَالْحَرَكَةَ لِلرَّاكِدِينَ، وَالْحَيَاةَ لِلأَمْوَاتِ، وَٱلْبَصَرَ لِلْعُمْيَانِ، وَالصِّحَةَ لِلْعَافِينَ، وَٱلْقُرْآنَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلِياً لِلْمُتَشَيِّعِينَ.

هَبِ ٱلْوَحْدَةَ لِمَذْهَبِنَا، وَالشِّفَاءَ لِحُسَّادِنَا، وَٱلْمَوْضُوعِيَّةَ لِلأَنَانِيِّينَ مِنَّا، وَالأَدَبَ لِلسَّبَّابِينَ مِنَّا، وَالصَّبْرَ لِلْمُجَاهِدِينَ، وَٱلْوَعْيَ لِعَامَّةِ النَّاسِ، وَلِلأُمَّةِ: الهِمَّةَ وَالتَّصْمِيمَ وَالاسْتِعْدَادَ لِلْفِدَاء طَلَباً لِلْعِزَّةِ وَالنَّجَاةِ.

يَا رَبَّ ٱلْكَعْبَةِ.

هَؤُلاَءِ النَّاسُ. فِي أَقْطَارِ ٱلْعَالَمِ، الَّذِينَ يَتَوَجَّهُونَ إلى بَيتِكَ صَبَاحاً وَمَسَاءَ الَّذِينَ يُحْيُونَ وَوُجُوهُهُمْ إلى بَيتِكَ وَيَمُوتُونَ وَوُجُوهُهُمْ إِلَى بَيتِكَ، وَيَطُوفُونَ حَوْلَ كَعْبَتِكَ الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُكَ إِبْرَاهِيمَ، هَؤُلاءِ قَرَابِينُ الْجَهْلِ وَالشِّرْكِ وَفِي أَسْرِ «النَّمْرُودِ» فَلاَ تَقْبَلْهُمْ.

يا محمد

يا رسول اليقظة والحرية والقوة: في بيتك حريق منتشر، وفي أرضك سيل غربي جارف، وشعبك يغرق في سبات عميق من الذلة السوداء. أصرخ بهم. أيقظهم.

قم فأنذر!

وأنت يا علي

أيها الأسد! يا رجل الله والمؤمنين، يا رب الحب والسيف! لقد أفقدونا القدرة على معرفتك، وسلبوا من عقولنا فهمك، لكن حبك، رغم الزمن، لا يزال دائم الاشتعال في أفئدتنا وقلوبنا. أنت يا سيد المثل: كيف تترك أحباءك في أسر الذل؟

أنت الذي لم تطق ظلم امرأة يهودية تعيش في ذمة دولتك، انظر إلى المسلمين في ذمة اليهود.. ماذا حل بهم!

يا صاحب القبضة التي تعدل ضربتها أعمال الثقلين.

ضربة أخرى..

وأنتما:

أيتها الأخت، أيها الأخ..

يا زينب والحسين.

يا من أعطيتما الإنسانية معناها، والحرية روحها، وبثيتما الإيمان والأمل، وأعطيتما بالموت العظيم: الحياة..

نعم أنتما: منذ ذلك اليوم الذي يصاب الخيال من تصوره بالهلع، وتتقطع القلوب من ألم ذكراه، منذ ذلك اليوم لم تجف دموع هذه الأمة حزناً عليكما وحباً لكما. ومن أجلكما ضحت أمة تاريخاً طويلاً. بتهمة حبكما تلقت السياط وتعرضت للإبادة، وذاقت مر العذاب. ورغم السياط والإبادة والعذاب، لم يفارق شفاهها ذكركما وذهنها خيالكما ولم تخب في قلوبها نيران الشوق إليكما.

وأنت يا زينب

يا من تفرغ عن لسان أبيها..

تحدثي إلى الأمة..

أيتها المرأة التي أخذت الرجال عن طريقها بطولاتهم..

نساؤنا اللواتي يلهب قلوبهن اسمك بنيران المحبة، هن اليوم أكثر من أي وقت في حاجة إليك، ففتن الإغراء الخبيثة تدلهم حولهن، فانقذيهن.

أما أولئك المأسورين بوسائل التجهيل القديمة والحديثة، والتقاليد البالية والفتن الجديدة، أيقظيهم بصوتك الذي رن في العواصم ودك مدن الجور وهدم قصور الخيانة..

حركيهم ليثوروا على أنفسهم ويمزقوا هذا النسيج العنكبوتي الخادع، ليتعلموا الوقوف في وجه العواصف التي تنذر بالهبوب..

أنقذيهم، بقيادتك، من أروقة القديم وأسره، ومن دهاليز الجديد وفتنه.

زينب.

يا من «تفرغ عن لسان أبيها».

وتحمل على عاتقها رسالة الحسين..

أيتها الآتية من كربلاء حاملة رسالة الشهداء..

لتوصلها، رغم ضجيج الجلادين، إلى مسامع التاريخ..

زينب

تحدثي إلينا..

لا تروي ما جرى عليك..

لا تقصي ما رأيت في تلك الصحراء الدامية.

لا تعيدي ذلك فقد بلغت جريمته أقصى المدى..

لا تعيدي حديثها..

فالله قد جلا كل القيم الغالية والمجد الإلهي العظيم على شاطيء الفرات، وفوق رمال الطفوف المحرقة، وعرضها على الملائكة..

ليعلمهم لماذا يجب أن يسجدوا لآدم!

نعم زينب،

لا تقولي ما جرى عليك هناك،

ماذا فعل الأصدقاء، وماذا جنى الأعداء.

نعم. . يا رسول ثورة الحسين.

فنحن نعلم بأنك أديت رسالة الشهداء على أفضل وجه، وكنت أيضاً شهيدة، إذ صنعت من دمك «الكلمة»

التي قالها أخوك «الحسين» بقطرات من دمه.

لكن قولي لنا أيتها الأخت: ماذا نصنع نحن؟

أنظري لحظة إلى ما نعاني.

استمعي إلينا أيتها الأخت الحنونة،

لنعيد عليك مصائبنا.

فأنت التي يجب أن تبكي علينا.

أنت أيها (الرسول) الأمين لرسالة أخيها.

أيتها الآتية من كربلاء، مروراً بتلك الأجيال، مؤدية رسالة أخيها.

أيتها الآتية من حدائق الشهادة الحمراء، حاملة عطر الزهور التي تفتحت حديثاً في تلك الديار.

يا ابنة علي،

يا أختاه،

يا حادية ركب الأسرى!

خذينا معك في تلك القافلة!

وأنت يا حسين، ماذا أقول لك؟

«الليل المظلم، وخوف البحر، وسورة الأمواج الهائلة»

وأنت يا مصباح الطريق.

يا سفينة النجاة.

أيها الدم الذي يخض الصحراء ويحركها، ويجري في رقدة الزمن ماراً بجميع الأجيال،

مروياً كل تربة معطاء.

مفجراً كل نبع وبذرة ظامئة،

ومثلاً كل عود اخضراراً وثمراً.

يا معلم الشهادة الكبير،

أبرق في ليالينا السوداء اليائسة،

إمنح قبورنا الميتة اليابسة قطرة من دمك،

وأطلق في شتائنا البارد الذاوي،

شعلة من صحرائك المتوثبة باللهب.

يا من اختار الموت الأحمر لينقذ أحباءه من الموت.

وليبني بكل قطرة من دمائه حياة أمة.

وليطلق حركة تاريخ ويخض هيكل عصر ميت ومهشم،

فيهبه الحركة والحياة، والحب والأمل.

إيماننا،

أمتنا،

تاريخ غدنا،

هيكل عصرنا،

«في حاجة إليك وإلى دمك».

الفهرس